

خالد محمد خالد

الدولة في الإسلام

الهفطام
للنشر والتوزيع

الطبعة الرابعة

جمادى الآخر ١٤٢٥هـ - أغسطس ٢٠٠٤م

القاهرة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ربحان - عابدين

القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

وَأَن لَّكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَالْحَفِظْ لَهُمْ أَن يَفْتَنُوكَ
عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ

صدق الله العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١

في عام ١٩٥٠م ظهر أول كتاب لي، وكان عنوانه: "من هنا.. تبدأ".
وكان ينتظم أربعة فصول، كان ثالثها بعنوان "قومية الحكم".
وفي هذا الفصل ذهبت أقرر أن الإسلام دين لا دولة، وأنه ليس في
حاجة إلى أن يكون دولة.. وأن الدين علامات تضيئ لنا الطريق إلى الله
وليس قوة سياسية تتحكم في الناس، وتأخذهم بالقوة إلى سواء السبيل،
ما على الدين إلا البلاغ وليس من حقه أن يقود بالعصا من يريد لهم
الهدى وحسن ثواب.

وقلت: إن الدين حين يتحول إلى "حكومة" فإن هذه الحكومة
الدينية تتحول إلى عبء لا يطاق، وذهبت أعدد يومئذ ما أسميته:
"غرائز الحكومة الدينية" وزعمت لنفسى القدرة على إقامة البراهين
على أنها، أعنى الحكومة الدينية، في تسع وتسعين في المائة من
حالاتها جحيم وفوضى، وأنها إحدى المؤسسات التاريخية التي
استنفدت أغراضها ولم يعد لها في التاريخ الحديث دور تؤول إليه.

وكان خطئي أنني عممت الحديث حتى شمل الحكومة الإسلامية.
وقلت: إن غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل

البعد، ولخصت هذه الغرائز في:

١- الغموض المطلق، إذ هي تعتمد في قيامها على سلطة غامضة، لا يعرف مآتها، ولا يدرك مداها، وصلة الناس بها يجب أن تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلي والتفويض المطلق..

٢- ومن خصائصها - كما قلت يومذاك - أنها لا تثق بالذكاء الإنساني ولا تأنس له، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته، لأنها تخافه وتمشاه.

٣- وهي لكي تقنع الناس بضرورة قيامها ويقائنها تهيب بجانب الضعف فيهم، فتلقى في روعهم أن رواد الخير والحريّة والفكر والإصلاح ليسوا سوى أعداء الله ورسوله يحاولون نفي الدين عن المجتمع بنفي السلطة التي تمثله وتصونه.

٤- والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية، وهي لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه، بل ولا مجرد لفت النظر فضلا عن المعارضة والنقد.

٥- والوحدانية المطلقة أعتى غرائزها - وهي تحفزها إلى مكافحة الرأي مهما يكن حكيما، وقتل المعارضة مهما تكن مخلصّة نافعة.

٦- والجمود الذي تتسم به يجعلها تضيق بكل جديد لأن صورة الدين في ذهنها مرتبطة بكل ما هو جامد وقديم.

٧- والقسوة المتوحشة هي سيّدة غرائزها وأكثرها عتوا ونفورا وأنها لتحز عنقك وتهرق دمك وهي تصيح من فرط نشوتها: وأما لريح الجنة.

هكذا ذهبت أنعت وأهدم ما أسميته يومها بالحكومة الدينية.
وهكذا أخذت كل خصائص ونقائص الحكم الاتقراطي
الديكتاتوري وخلعته على ما أسميته "الحكومة الدينية"!!
ولم أكن يومئذ أخدع نفسي ولا أزيف اقتناعي، فليس ذلك
والحمد لله من طبيعتي. إنما كنت مقتنعا بما أكتب مؤمنا بصوابه.

وحين أرجع بذاكرتي إلى الأيام التي سطرت فيها هذا الرأي وهذه
الكلمات لا أخطئ التعرف إلى العوامل التي تغشتني بهذا التفكير..
والكاتب حين يحيا بفكر مفتوح بعيداً عن ظلام التعصب وغواشي
العناد، فإنه يستطيع دائماً أو غالباً أن يهتدى إلى الصواب ويقترّب من
الحقيقة ويعانقها في يقين جديد، وحبور أكيد، ونحن مطالبون بأن نفكر
دائماً، ونراجع أفكارنا، وننكر ذواتنا ونتخلى عن كبريائنا أمام الحقائق
الوافدة.. وإذا لم تفعل فسنكون كما قال "أفلاطون":

"مجانين، إذا لم نستطع أن نفكر.."!!

"ومتعصبون، إذا لم نرد أن نفكر.."!!

"وعبيد إذا لم نجروا أن نفكر.."!!

* * *

وأحمد الله على أنني لست من المجانين، ولا المتعصبين، ولا
العبيد.. ومن أجل هذا كان من اليسير على أن أستقبل في بشر ومودة
هذا التفكير الجديد الذي واتاني من طول التأمل والتمعن وتقليب
وجوه النظر في حياد شديد.

ترى ماذا كانت المقدمات التي أوصلتني إلى موقفي القديم من
"الحكومة الدينية"، أو بتعبير أصح ماذا كانت البواعث النفسية

والفكرية التي أفضت بي إلى ذلك الموقف...؟؟

وأود - أولاً - أن أشير إلى أن تسمية "الحكومة الإسلامية" بالحكومة الدينية فيه تجن وخطأ، فعبارة "الحكومة الدينية" لها مدلول تاريخي يتمثل في كيان كهنوتي قام فعلاً، وطال مكثه، وكان الدين المسيحي يُستغل أبشع استغلال في دعمه وفي إخضاع الناس له.

فالحكومة الدينية مؤسسة تاريخية نهضت على سلطان ديني بينما كانت أغراضها سياسية، وأصلت الناس سعيراً بسوء تصرفاتها وتحكمها.. وهي في المسيحية واضحة كل الوضوح بينما الإسلام لم يشهد في فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية، لا سيما في العصور الوسطى، عصور الظلام!!

ولعل أول خطأ تغشى منهجي الذي عالجت به قديماً قضية الحكومة الدينية، كان تأثيري الشديد بما قرأته عن الحكومات الدينية التي قامت في أوروبا، والتي اتخذت من الدين المسيحي دثاراً تغطى به عريها وعارها..

أجل.. فإني أستطيع أن أخص بواعثي في ذلك التفكير القديم وأردّها إلى عاملين اثنين - كان هذا أولهما.. التأثير بما قرأته عن الحكومة الدينية المسيحية، ولذلك تجدني أقول في كتابي "من هنا نبدأ"

".. ففي الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التي لا تخطر للشيطان نفسه ببال، فكان الخازوق، ووتد التشهير، وصلب الأذان، وتمزيق الجسد، ومحاكم التفتيش، وحرق العلماء بالنار وهم أحياء..!!"

ثم قلت:

"وفي الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أهوال مروعة، حتى إن حاكماً دينياً واحداً - هو الحجاج - أباد البقية الكريمة الصالحة من

صحابة رسول الله، حتى قال عنه "عمر بن عبد العزيز"
 "لو جاءت كل أمة بخطاياها، وجئنا نحن بنى أمية
 بالحجاج وحده لرجعناهم..!!"

إذن، فقد كنت فى قمة التأثير ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية
 المسيحية، ثم عكست الصورة فى غير حق على الحكام السياسيين فى
 الإسلام واعتبرتهم حكومة دينية إسلامية..!!

ومضيت أدحض ما اعتبرته حكومة دينية فى الإسلام بنفس القوة
 التى دحض بها الفكر الإنسانى الرشيد الحكومة الدينية التى قامت فى
 ظل الكنيسة وكانت أكثر خطراً على المسيحية من الشيطان نفسه!!

من قال إن الحجاج حاكم دينى؟ وهل فى الإسلام كهنوت
 يستطيع أى حاكم أن يستمد منه سلطاناً مطلقاً وفى ذات الوقت يكون
 مقدساً؟ لا. ومع هذا فقد اقتنعت قديماً بهذا الذى يبدو لى اليوم
 تجنياً وخطأً.

إن الإسلام حتى فى فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم
 يمنع أياً منهم سلطة بابوية كهنوتية، لأنه لا يتسع لآى كهنوت لا فى
 تعاليمه ولا فى تطبيقاته.

من أجل هذا كان تسمية الحكومات الإسلامية المنحرفة بالحكومة
 الدينية وتحميل الإسلام وزرها أمر مجاف لكل صواب..

* * *

أما العامل الثانى الذى شكل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية
 فقد كان عاملاً موقوتاً بزمانه. ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها
 حكمى القديم.

ذلك أن "الإخوان المسلمين" كانوا قد بلغوا خلال الأربعينات من
الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظير.

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضوء، وكان الشباب بصفة
خاصة يقبل عليها إقبال أسراب النحل على رحيق الزهور!!

وذاات يوم والجماعة فى أوج مجدها الباهر، لا ندرى هل انبثق
منها، أو أقحم عليها وتسلل إليها ما سمي يومئذ بالتنظيم السرى،
وارتكب هذا الجهاز جرائم منكرة وتوسل بالاغتيالات لغرض الدعوة..
الدعوة التى كانت قد حققت بالإقناع والمنطق ما لم تحققه دعوة
أخرى.. والدعوة التى كانت لباقه مرشدها الأستاذ حسن البنا رحمه الله
وإخلاصه يفتحان له الآذان الصم والقلوب الغلف، ويسلسان له قياد
الجماهير كافتهم ومثقفهم.

لفتت حوادث الاغتيال التى مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه
الناس وروعت أفئدتهم، وكنت من الذين أقض مضجعهم هذا النذير.
وقلت لنفسي إذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيدون عن الحكم
فكيف يكون مسلكتهم حين يحكمون؟؟!

وتذكرت كلمة المفكر الفرنسى "فولتير":

"إن الذى يقول لك اليوم: اعتقد ما أعتقده وإلا لعنك الله،

سيقول لك غدا: اعتقد ما أعتقده وإلا قتلتك"!!

على أن ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى وتجاوز

مرحلة اللعن إلى مرحلة القتل والاغتيال!!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنح بتفكيرى إلى التحذير من

قيام أى حكومة دينية باسم الإسلام.

وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه.

كان الخطأ الأول مصاهاتي بالحكومات الدينية الكنسية بحكم الإسلام.

وكان الخطأ الثاني تعميم نتائج ما افترقه لجهار السرى باسم الإسلام.

وفي كلا الخطأين كان هناك خطأ في السمع ذاتة. فقد جعلت ما تأثرت به من قراءاتي عن الحكومة الدينية في المسيحية، وما تأثرت به من تحول بعض الشباب المسلم من نساك إلى فسة.. جعلت هذا وذاك "مصدر" تفكيري، لا موضع تفكيري!! وفرق كبير بين أن تجعل الحدث أو الشيء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك.

عندما يكون مصدر تفكيرك فإنه يقودك في طريقه هو، لا في طريق الحقيقة، وتبصر نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر مشدودا إلى مقدمات وسائرنا نحو نتائج لم يأخذ الاستقلال الفكري حظه في تمتعها ودراستها. أما حين يكون الشيء موضع تفكيرك فإنه يمد تفكيرك المحايد والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون أن يلزمك بحكم مسبق ينحرك الفكر داخل إطاره الحديدي الصارم.

إلى هذا السبب الجوهرى أرد حطئي فيما أصدرته - قديم - من حكم ضد الحكومة في الإسلام، هذه التى أسميها بالحكومة الدينية.



٢

والآن، وفي ضوء اقناعي الجديد بأن الإسلام "دين، ودولة" فكيف وصلت إلى هذه الحقيقة؟؟ وما شكل هذه الدولة؟؟ وما أغراضها وأهدافها حين تقوم؟؟

أما لتدني بهذه الحقيقة، أو لتتواضع ولتقبل هذه النتيجة، فقد جمعتي بها في لقاء سعيد، العقل لا الوجدان. لقد توارت الأسباب التي حدثتكم عنها من قبل، واستقبلت القضية بعقل غير عصى، ونفس توافه إلى معرفة الحق وإعلانه بصوت جهير، دون أن تجد عضاضة أو خحلا من أن تعترف بالخطأ وتوجه الصواب.

قلت لنفسي:

قبل أن يكون هناك إسلام كان هناك عرب. وهؤلاء العرب هم الرعيل الأول الذي حمل راية الإسلام، وسار بها مشرقا ومغربا.. فهل كان أولئك العرب عنصرا مهيأ لأن ينشئ "حكومة" أو يتقبل تبعها ويحملها في اقتدار؟؟

هل وقعت للعرب قبل الإسلام تجربة مع الحكم فأسسوا دولا وحكومات؟

إنه على فرض انتفاء هذا الأمر، فليس يسلب الإسلام حقه ولا مقدرته على تأسيس دولة.

ذلك أن الإسلام جاء ليكون قوة تغيير عميقة وشاملة. جاء فغير العقيدة والمجتمع والسلوك.

فحتى لو لم يكن للعرب سابقة مع الحكومة، فإن الإسلام بحصن نصه قادر على تمكينهم من ممارسة هذه الحرية بنجاح.

ومع هذا فسرى أن هؤلاء الذين نزل الإسلام أول ما نزل عليهم وفيهم، كانوا وكان آدؤهم ممن أنشأوا الممالك والإمارات.

فقبل مجيء الإسلام بمرون، كان هناك عرب لهم حكومات هم الذين أنشأوها، وحضارة هم الذين صنعوها.

يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن^(١):

كان في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية مملكة سبأ وحمير وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بألفي سنة درجة من الحضارة تدل عليها إطلال المباني الصخمة، والتقوش الكثيرة. وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والأبهة التي وصلت إليها مملكة سبأ.

كذلك كان هناك من العرب مملكة الحيرة ومملكة العساين، وكان في جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة في الجنوب الشرقي.

وكان هناك مملكة "معين" وقد سبقت مملكة "سبأ" في الظهور وكانت على جانب عظيم من البأس والقوة.

وبلند في الظهور مملكة سبأ التي اشتهرت بالثروة والقوة يسر

(١) تاريخ الإسلام السياسي ج ١

ممالك العالم في ذلك الحين، وبلغ من قوتها أن ردت جيوش "أوغسطس قيصر" عن أسوار مارب ودحرقتها.

وكان لها تحارة واسعة مع مصر، وسوريا، وبابل.. ولا تزال سدودها وأحواضها تثير إعجاب الرحالة والسائحين، وتدل آثارها وأطلال أبنيتها الفخمة على ما بلغت من العظمة والمجد.

وكان لها أسطول بحري ينقل تجارتها إلى حيث تريد، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل سلعها التجارية. وكذلك كن هناك مملكتا الحيرة وغان، قامت على حدود بادية الشام.

وكانت لامراتورية الفارسية ستعين بمملكة الحيرة على حرب الروم، كما كن الرومان يستعصون بأمراء غسان على الفرس..!! وقد استمرت مملكة الحيرة من القرن الثالث الميلادي حتى ظهور الإسلام، وكان لأهلها أثر كبير في الحضارة العربية، وعاصم على ملكها خمسة وعشرون ملكا.

ويقول الدكتور أحمد موسة في كتابه "حصارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور".

تبدأ المرحلة الأولى من حضارة العرب القديمة في حوالي أربعين ألف سنة قبل الميلاد، وتنتهي في حوالي ثمانية عشر ألفا قبل الميلاد، وقد عاشت هذه الحضارة ضمن حدود جزيرة العرب..

.. ويرى الخبراء المتخصصون في شئون البلاد العربية أن الهجرة من جزيرة العرب تمت في الأصل من منطقة جوبي

الحزيرة، ومنها توجهت الجماعات النازحة من جزيرة العرب إلى شمال، ثم توزعوا على أطراف الهلال الخصيب في فلسطين وسورية ومصر والعراق.

وفي هذه المرحلة من حضارة العرب استطاعت القبائل العربية النازحة من جزيرة العرب بمصر الحضارة و لحضرة اللتين اكتسبتهما في وطنها الأصلي خلال فترة الازدهار من تأسيس الحضارات السامية العربية الكبرى في مسوط بها الحديدية، فأسست هذه القبائل في مدة قصيرة نسبيا لا تتجاوز ثلاثة آلاف سنة أقدم الامراطوريات وأعظمها مما عرفه تاريخ لعالم القديم في تاريخ البشرية في الامراطوريات الساميات الأربع: الأكديّة، والبابليّة، والآشورية، والكلدانية الآرامية..

"إن الهجرات المتتالية التي انبعثت من جزيرة العرب كانت من أهم العوامل في تقدم الكيان لحضارى في الشرق الأدنى والسير به نحو التطور في محسب المبادئ الزراعية والحربية، والسياسة، والعسكرية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية. ذلك الكيان الذي انبعث منه أقدم الامراطوريات وأعظمها فيما عرفه لتاريخ.."

"فالحريرة العربية إذن هي بحق مهد الحضارات السامية العربية، فقد قدفت بأبائها الأشداء إلى ما وراء الصحارى.. فهي والحالة هذه ينسوع الذى انشعب منه جميع الحضارات العربية السامية في الهلال الخصيب.."

وكانت مستوطنات شعب الجزيرة في عالمه الجديد تؤلف عالماً عربياً واحداً يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الأجزاء تضم الجزيرة العربية "الأم" وأبنائها في بلاد المهجر..

لقد كان هؤلاء العرب بناء أعظم وأقدم إمبراطورية سامية عرفها التاريخ، وهي الإمبراطورية الأكديّة التي أسسها "سرجون" في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والتي سميت بالأكديّة نسبة إلى عاصمتها "أكّد".

وعندما استقرت الحصار السامية في العراق ازدهرت فيه سلسلة متواصلة من الممالك العظيمة لعب دوراً رئيسياً وهاماً في تقدم الحضارة الإنسانية..

"ولم يبق الحصار العربيّة فترة من الزمن بين المد والحزر كونت في خلالها دولاً عربيّة كدولة العباسية في سورية، والمادرة في العراق، ودولة الأنباط والتدمريين وغيرها من الإمارات العربيّة كإمارة كسدة، وإمارة الحضر وإمارة الرها، وإمارة حمص وغيرها حتى ظهر الإسلام فانبعثت به الحضارة العربيّة على مستوى أوسع وعم، وعادت فانبعثت من مسعها الأصلي (جزيرة العرب) وأسست دولة عظمى فاقت جميع الدول التي سبقها بحيث شملت القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوروبا).. وقد حاولت أوروبا المسيحية قهر الحضارة العربيّة الإسلامية وإبادتها ولكنها فشلت بعد مجده، استمرت حوالي مائه

وخمسين عاما".

ويختتم المؤلف بحثه هذا بكلمه "جورج سارنون الذى يقول:

"سبق للعرب أن فادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من التقدم الإنسانى طوال ألفى سنة على الأقل من أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى أربعة قرون تقريباً وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تعود اعلم ثبة فى المستقبل القريب أو البعيد".

* * *

إذن كان هناك مماثلك عربية وحكومات عربية وحضاره 'نام كات "أوربا" وما حولها معاربات وكهوفاء، وظلاما فى ظلام. وإذن، فليئة النى مرل عليها لإسلام كات داب ماص عربى وتجربة عريقة وممارسة طويلة الأمد مع الحكم والحكومات. ونحن نعلم أن الإسلام جاء ليحدث تعيرا وتصعبدا. تعيرا للباطل، وتصعبدا وتعلية لكل ما هو ضرورى وحق. ولم يكن العرب فى عصور الحاهلية لموعلة فى البعد، فادرين على ما يعجز عنه أسلافهم فى ظل الإسلام بكن قونه وعظمه ورشده. وحتى مكة - فيما بعد - والتي لم تكن فيها حكومة، بجدها فد قامت نوزيع مسئوليات الحكومة على قبائنها وبيوتائها وأهذاد رجالها فكانت قوى المجتمع هى التى تحكم وتقود فى تنظيم ناصح وسديد والمديبه كات قبل ذهاب الإسلام إليها تنهياً لتوزيع ميث عليها وإذا قام الملك قامت حوله الحكومة على نحو ما .

وهكذا لم يكن الإسلام يعمل في خواء ولا يبدأ من فراغ حين يدعو أتباعه لتأسيس حكومة، بل وحين يبدأ بالفعل في تأسيس دولة وقف على رأسها إمام المتقين وحاتم المرسلين وخير خلق الله أجمعين.



٣

وعندما توجد "أمة" تؤلف بينها وحدة اللغة والجس والدين..
وتوجد الأرض أو "الوطن" الذي تقطنه هذه الأمة. ثم توجد "سلطه
عليها" تنظم شئون هذه الجماعة، فقد وجدت الدولة.

ولقد توفر هذا كله للامة المسلمة بعد أن استقر مقام المسلمين في
المدينة، فقد كان هناك "أمة" هي أمة لإسلام، وكان هناك وطن
وعاصمة لهذه الأمة، هي "المدينة" .. وكان هناك سلطه عليها تتمثل في
الرسول ﷺ بما يوحى إليه من ربه وبما تُمحّص عنه مشوراته الدائمة مع
أصحابه حول كل القضايا والمواقف التي لم يأب الوحي فيها بيان.
وهذه حقيقة لا تقبل المماراة.

يقول المستشرق "هاملتون جب":

"بعد الهجرة قام في المدينة مجتمع قائم بذاته منظم على
قواعد سياسية تحت قيادة رئيس واحد،

"وقد كانت فكرة الرسول الشابة عن هذا المجتمع الديني
الجديد الذي أقامه، أنه سينظم بنظماً سياسياً، ولن يكون
هيئة دينية منفصلة ومندرجة تحت حكومة زمنية"^(١).

^(١) نقلاً عن كتاب النظريات السياسية في الإسلام للدكتور عبد الدين الريس

ويقول المرحوم الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس^(١):

"لم يكن هناك أية وظيفة من الوظائف التي يمكن أن يقال عنها إنها سياسية - من إعداد الأداة لتسيير العدالة أو تنظيم الدفاع، أو بحث للتعليم، أو جباية للمال، أو عقد معاهدات، أو إعداد سفارات إلا كانت هذه الدولة تؤديها على عهد رسول الله ﷺ"

فالمجتمع المسلم في المدينة، من كان له دولة يفودها رسول الله ﷺ.. دولة لها جيش، ورأية، وهوايين، وضرائب، وكل مقومات الدولة الحديثة. وانسع نطاق هذه الدولة، وقام صرحها العظيم في عهد الخلفاء الراشدين، ثم فيما تلاه من عصور وعهود، ولعلنا لا نجد ديباً، ولا نظرية تتطلب طيعتهما قيام الدولة كما نجد ذلك في الإسلام.

فالإسلام دين نظام، ليس في نطاق المعاملات وحسب، بل وفي نطاق العبادات.. فالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، كلها تؤدي وفق نظام حازم وحكيم. وهو لا يعنى بتنظيم الحجة في نطاقها الواسع فحسب، بل وفي أضيق نطاق.

يقول الرسول ﷺ معهما أصحابه وأمته:

"إذا كنتم ثلاثة في سفر، فأمرور أحدكم."

أي، فليحتر الثلاثة من بينهم واحداً يكون عليهم "أميراً" ينظم مساعيهم ومسراهم.

(١) المرجع السابق.

فكيف تتوقع من دين يُعنى بالإمارة بين ثلاثة ألا يعنى بها بالسنة
لمجتمع كبير وأمة عريضة..؟

ولقد كان أصحاب الرسول رضوان الله عليهم عسى وعى كامل بهذه
الحقيقة ولهذا وجدناهم يتجه اهتمامهم بعد موت الرسول مباشرة إلى
اختيار الخليفة، حتى قبل تجهيز الرسول ودفعه!

* * *

كان لرسول الله ﷺ يدرك أن ساء "دولة الإسلام" واستمرارها جزء من
مهمته كنبى ورسول.

بل لعله كان يرى ذلك جزءا من مهام الأنبياء والمرسلين أيضا .
فعليه تنزلت الآية الكريمة التى حاطب الله بها نبيه داود عليه السلام .
﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ،
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

فالله سبحانه يخاطب "داود" نبيه بأنه خليفة فى الأرض يسوس
أمر قومه، ويشتر العدل، ويحكم بين الناس بالحق.. أفلا يكون
"محمد" عليه السلام كذلك بنبى دعوة، وقائد دولة وأمة؟؟
والإسلام باعتباره "خاتم الأديان، و"صعوبة" الشرائع، لا يمكن أن
يحقق ذاته، لا بإرساء قواعد الدولة التى تحقق أهداف هذا الدين
الخاتم.

وما دام المجتمع البشرى بطبيعة تكوينه فى حاجة إلى دولة أو دول
تنظم سلوكه وحياته، فكيف بغض الإسلام عن نفسه هذه الحاجة الممنوعة
والضرورية..؟؟

بل إن الكتب التي أرسلها الرسول الكريم في السنة السادسة للهجرة إلى نهر من أباطرة العالم يومئذ وحكامه، وعلى رأسهم "هرقل" امبراطور الروم، و"كسرى" فارس، و"الحاشي" امبراطور الحبشة، و"المقوقس" حاكم مصر وغيرهم.

نقول إن هذه الخطوة من جانب الرسول كن لها معرّاف الساسي بعد مغزاها الديني.

إنها تدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده والدخول في دينه الخ، ولكن، لعلها بعد هذا بشر إلى ما كان الرسول عليه السلام يعلقه على الإسلام من أمل في إقامة "حكومه عالمية" تقوم على مهج الدين وقيمه ومبادئه لا سيما بعد أن كشف الله له حجب العجب يوم الحندق فرأى الإسلام بضياء بصرى وأنشام والعراق وفارس والروم..!!

لقد كانت هذه الرؤية لا الرؤيا التي وقعت بظفة لا ماب حس كن عليه الصلاة والسلام بعمل مع أصحابه في حفر الحندق فاعرضتهم صحرة عانية، فتعرض لها الرسول ﷺ بمعوله وحين انصدع جيرونها وطار شررها كبر الرسول ﷺ ربه وحمده بصوت جهير، فقد رأى سورا يغمر حجاب الأرض، وألقى في روعه أنه نور الإسلام سضيء البلاد ويهدي العباد.

كانت هذه الواقعة في غروة الحندق في السنة الخامسة من الهجرة وكانت كتابته للأباطرة والملوك بعد ذلك يهليل في السنة السادسة للهجرة.. أفلا نلمح علاقة بين الموقفين؟

إنه ما دام الرسول كان رسول الله للعالمين، وكان دينه شرعا للعالمين سواء كانت نظما مياسية أم اجماعية؟
لماذا لا يطمح الإسلام إلى "حكومة عالمية" تلتف حول مبادئه

وكتابه؟

لقد تحققت نبوءة الرسول التي تنبأ بها يوم الحديق، وخلال خمسة وعشرين عام دست لحريرة العربية كلها للإسلام ودخل تحت مظله دوله الكبرى معظم بلاد ونخوم الامبراطوريتين، الفارسية والرومانية ثم نوالى الفتح بعد ذلك حتى صارت القوة والزعامة للإسلامة طوال مائتى سنة هي القوة الأولى فى العالم كله.

أجل - بين عامى ٦٥٠، ٨٥٠ ميلادية كانت الدولة الإسلامية أقوى وأعظم دولة فى العالم.

وفى أقل من ثمانين عام شملت الفتوحات الإسلامية من الأرض والبلاد أكثر من تلك لنى صمتها روما فى ثمانمائة عام !!

ولم تكن فتوحات الإسلام عأشمة ولا ظالمة، بل كانت رحمة وهداية وسلاما. كتب حروب تحرير وتمدين وليس أدل على ذلك من أنه بعد تفكك الدولة للإسلامة ظل المسلمون فاده الفكر والعلم فى العالم لمدة خمسة قرون.

كما أنها لم تكن فتوحات عنصرية، فبن الكثيرين من أبناء الدول الممتوحة كانوا يصلون، لى على ماصب الدولة، وعدم ترك لمسلمون أسباب - مثلا - لم يركوها مهلهة مبهوة، بل تركوها مرطورة عظمى بفضل ما كانوا قد أسدوا إليها من حصارة وعمران وثقافة.

أو كل ذلك، ثم نقول، الإسلام دين لا دولة؟ إذن فمدا كان كل هذا الفتح العظيم والطود الشامع؟؟



٤

لقد كانت تصرفات الرسول تومئ إلى رجل ينشر دعوة ويبني دولة فهو يشكل الحيوث ويجعل عليها أمراءها، وهو يعقد المعاهدات، ويرسل السفارات، ويجمع الضرائب - زكاة وحزبة - وحين يغادر المدينة عاصمة الدين والدولة يختار أميراً يخلفه فيها ويقوم إدارياً وسياسياً ودينياً بكل مهام الرسول عليه السلام، ولقد قدم الرسول في المدينة بكل مسئوليات النبي والحاكم، واستمر ذلك من بعده بدءاً من يوم السقيفة..

من أجل هذا، أجمع المسلمون - أهل السنة، والمعتزلة، والشيعة، والمرجئة، والحوارح إلا قلة ضئيلة عرفت باسم "البجدات" أجمعوا جميعاً على وجوب نصب "الإمام" أي قيام "الدولة" التي ترعى شؤون الإسلام والمسلمين.

والإسلام وإن يكن ديناً شرعه الله سبحانه إلا أنه في تطبيقاته الإنسانية يمثل "عقداً اجتماعياً" يتضمن قيام سلطة تفي بالتزامات هذا العقد، وتسهر على تنفيذه.

والمادى والتنظيمات التي تلبي كل احتياجات الناس، والتي أثراها "الفقه الإسلامي" وتتمتع في تبيانها بتطلبت شرعاً وعقلاً وبداهة

قدم "سلطة" تؤمن بهذا التراث ويستزم باحترمه وتنفيذه.
والإسلام يقيس نوع السلطة بسوع قيمه ومبادئه، فهو لا يقبل أى
سلطة تفرصها ظروف محافية لمبادئه، بل لا بد أن ينوفر لهذا السلطة من
العدل واحترام الشريعة ما يجعلها جديرة بكونها سلطة إسلامية.
من أجل هذا عرف الفقهاء المسمون رئيس الدولة المسلم بأه
"يقوم بأمر الحرب والسلام، وتدريب الحشوش والسرايا وسد الثغور،
وحماية الأمة، والأخذ من ظالمها لمظلومها، والقيام بكل مصالحها
ومهامها السياسية".
ومن أجل هذا أجمع الفقهاء كما أسفنا على وجوب قيام الدولة
المسلمة.

يقول ابن خلدون:

"إن نصب الإمام واجب قد عُرف وجوبه فى الشرع بإجماع
الصحابة والتابعين .
ويقول حجة الإسلام الغزالي:
"الدين والسلطان توأمان"
ويقول النسفى فى عقائده:

"والمسلمون لابد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم،
 وإقامة حدودهم، وسد ثغورهم، وتجهيز جيوشهم، وجمع
الزكاة المفروضة عليهم، وقهر المنصصة وقطاع الطريق،
 وإقامة الجمع والأعياد، وقطع المنازعات القائمة بين
العباد".

ويقول الإمام العزالي أيضا من حاجة الدين ولدتنا إلى الإمام

أى الدولة:

"ونظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والسكن والأقوات والأمن، ولعمري من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها".

"فلا ينظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه لصوريات. ومن قصى جميع أوقانه مسعرقاً بحراسة نفسه من ميواف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، فمضى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلناه إلى سعادته الآخرة".

"إن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا يستظمن إلا سلطان مطاع، وهذا تشهد له أوقات الفس. فما لم يتدارك الأمر بسلطان مطاع لدام الهرج وعم الشعب وشمل الفحط، وهلك الناس وبطلت الصناعات وصار كل من غلب سلب، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم إن بقى حياً، والأكثر يهكون تحت ظلال السيوف، ولهذا قيل: الدين أساس والسلطان حارس، ومالا أساس له فهو مهدوم، ومالا حارس له فضائع"^(١).

وقال الماوردي:

"..ويجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت ورعيم الأمة، ليكون الدين محروساً بسلطانه، والسلطان جارياً على سنن

(١) كتاب الاقتصاد في الاعتقاد.

الدين وأحكامه".

وقال الشهرستاني:

"ولا بد للكافة من م م بعد أحكامهم، ويقسم حدودهم، ويحفظ بيضنهم ويحرس حوزتهم، ويعبى جيوشهم، ويقسم غنائمهم ويتحكمون إليه فى خصوماتهم، وينصف المظبوم وينصف من الظالم، وينصب القضاة والولاة فى كل ناحية، ويبعث القراء والدعاة إلى كل طرف"^(١).

وقال الأيجى صاحب المواقف:

"إنا نعلم عندما يقارب الضرورة أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود والعقاصات وإظهار شعار الشرع فى الأعياد والجمعيات إنما هو مصالح عائدة إلى الخلق معاشا ومعادا. وذلك لا يتم إلا بإمام يكون من فى الشرع يرجعون إليه فيما يعن لهم"^(٢).

ويقول الجرجاني:

"نصب الإمام من أنم مصالح المسلمين، وأعظم مف صد الدين".

ويقول ابن تيمية.

"يحب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بنى آدم لا تتم

(١) نهاية الإقدام فى عم الكلام نقلا عن كتاب الطرياق سببىة، لإسلامية.

(٢) المرجع السابق

مصلحتهم إلا بالاجتماع بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند
الاجتماع من الحاجة إلى رأس. حتى قال النبي ﷺ "إذا
خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم".

"ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المکر ولا
بنم ذلك إلا بقوة وإمارة. وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد
والعدل، وإقامة الحق والجمع والأعباد، ونصر المظلوم
 وإقامة الحدود . وكل ملك لا سم إلا بالقوة وإمارة.
ولهذا روى أن "السلطان ظن الله في الأرض"

وكان السلف الصالح كالفضيل بن عياض، وأحمد بن
حنبل، وغيرهما يقولون:

"لو كانت لنا دعوة منجاة لادخرناها للسلطان" (١)



(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية.

٥

وإجماع المسلمين هذا على ضرورة قيام الدولة المسلمة مستمد مما انتظمه القرآن والسنة من آيات وتوجيهات، ومن نهج الحلفاء الراشدين الذين قال الرسول عنهم:

«عليكم بسنتي وسنة الحلفاء الراشدين المهديين من بعدي. عضوا عليها بالتواجذ».

كما أنه مستمد بعد ذلك من حركة الإسلام خلال التاريخ الطويل أما عن القرآن، فالقرآن مملوء بالآيات التي تدعو المسلمين إلى حكم الله

والفعل - حكم جاءت مشتقاه في القرآن بمعنى "الحكومة" التي تقصى وتفصل وتقود.. وجاء بمعنى "الحكمة" . وجاء بمعنى الإحكام والإتقان.. وجاء بمعنى العلبة والافتقار.. فلا يجوز الخلط بين هذه المعاني، ولا يجوز مثلاً حمل آيات الحكم على معاني الحكمه أو الإحكام، أو الافتقار، لأن معنى الحكم فيها واضح ومبين.

فمن آيات "الحكمة" قوله تعالى:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾

﴿ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

﴿ وَأَلَّزَلْنَا اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾

﴿ وَاذْكُرْ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾

من آيات "الإحكام" والغلبة قوله سبحانه:

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَقَكُمْ إِنْ اللَّهَ غَرِيبٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴾

﴿ ثُمَّ اذْعُهُمْ يَا إِبْرَاهِيمَ سَقِيَا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ غَرِيبٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَمَا الثَّمَرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ... ﴾

في هذه الآيات الكريمة نتحدث المرآن عن الحكمة بمعناها.. وعن

الاحكام بمعناها. وعن العلية والافئدار بمعنيهما

أما لفظ الحكم بمعنى القضاء والفصل ومعنى الحكومة أيضا فقد

ذكره القرآن ستا وسبعين مرة^(١) وحسبنا هنا إيراد بعض الآيات التي تشير بوضوح إلى أن الإسلام له دولته التي تحكم بما أنزل الله والتي تجعل العدل شرعتها ومنهاجها.

يقول القرآن العظيم:

﴿إِنَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾

فالقرآن لم ينزل على قلب الرسول ليتعبد به المؤمنون فحسب بل وليكون - أولا - مهجرا للحكم يحكم به الرسول أمته المسلمة بمأراه الله، أي بم رسم له في هذا القرآن من سبيل وما قضى فيه من قانون.

ويؤكد القرآن هذا الدور لرسول الله قائلا:

﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُمْ عَمَّا أُنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾..

ثم يؤكد له ضرورة الالتزام بحكم الله فيقول:

﴿وَاحْذَرِهِمْ أَن يَفْتُونَك عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾

وليس هذا الخطاب قاصرا على الرسول ﷺ، بل هو دعوة مفتوحة لكل مسلم يلي أمر المسلمين.

يقول الله تعالى:

﴿إِنِ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَن تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾..

(١) لمعجم المعهرس لألفاظ القرآن الكريم لطيب الذكر المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي

والأمانات هنا لا تعنى تلك الودائع التى يستودعها بعضا بعضا
فحسب بل تعنى - أولا - مسئولية الحكم التى هى أمانة ائتمن الله عليها
الحاكمين.

وأدائها إلى أهلها يعنى العدل فى تنفيذها والقيام به، كما يعنى
إشراك الشعب فى هذه المسئولية بكل الوسائل التى تجعل مشاركته فى
الحكم مشاركة فعالة وحقيقية.

والحكم بما أنزل الله وبما شرع لعباده، وبناء الدولة التى تنتزم هذا
النهج كان من بين وظائف الرسول عليه السلام.
ولم ينزل الله كتابه لنلهو به، بل هو ينقل إلينا حكم الله الذى
ارتضاه للناس، ولا يرضى بغيره بديلا عنه.
يقول سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾

ليس هناك من يعرض رأيه على حكم الله مهما تكن عمره وقوته.
ويؤكد العلى الكبير هذا المعنى فى هذه الآيات الكريمة:

﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ بَيْنَكُمْ﴾

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾

﴿إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ﴾

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ويرفض القرآن ويدحض كل افتيات على حكم الله وكل عدول عنه

إلى حكم وضعى مريج، فيقول:

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

ويوضح القرآن أولئك الذين يحرقون عن حكم الله إلى حكم الشر
﴿ أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْفَعُكُمْ وَأَخْسَرَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ

يُوقَشُونَ ﴾ ١٩٠

ويضع حدا فاصلا بين المؤمنين المختبئين الذين أذعوا لحكم الله
وارتصوا نشريعه وقانونه، وبين الصالين الذين عموا وصموا عما أنزل
الله من كتاب..

فيقول عن الأولين:

﴿ إِمَّا كَانَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

أَنْ يَقُولُوا سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَفْطًى ﴾

ويقول عن الآخرين:

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ

مُعْرِضُونَ ﴾

ويعلم الرسول أن يقول لأولئك المعارضين والمعارضين.

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ اتَّبَعْتُمْ حُكْمًا، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾

أجل.. كيف يتبع المؤمنون حكما غير حكم الله وهو الذي أنزل

إليهم كتابا مفصلا ومحكما وتبيننا لكل شيء، وأرسل إليهم حاتم
أنبيائه ورسله يزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويدعوه ويدعوهم
بقوله:

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾.

إن هذه الآيات التي سلفت، يكشف القرآن بها عن أن للإسلام
دورا غير هداية الس، هو دور الحكم والحاكم الذي يحمي ديارهم
وينظم حياتهم عن طريق دولته التي يحب أن تقوم وأن تبقى ما بقي في
الدنيا إسلام.

ودستور هذه الدولة مائل في كتاب الله، وسنة الرسول، وإجماع
الأمة.

وإجماع الأمة يتشكل وفق ما في القرآن والسنة من أحكام.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ

مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ. ﴾

والقرآن في الدولة المسلمة هو أبو القوانين فيها، وستحدث عن
هذا الموضوع إن شاء الله عند حديثنا عن شكل الدولة المسلمة وكيف
تنهض وتقوم.

أما الآن وقد تلونا الآيات القرآنية التي تعلمنا أنه لا بد للإسلام من
إمام يحكم ودولة تقوم، فلتتجه صوب السنة النبوية لطالع رأيها في هذه
القضية.



٦

ونحن حين نطالع آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الخاصة بقيام الدولة في الإسلام، لا نستقى بآية ولا بحديث يقول: يا أيها الذين آمنوا أقيموا دولة أو اتخذوا منكم إماما وحكما، تماما كما لا ملتقى بآية تقول أو بحديث يقول: يا أيها الدين آمنوا تنشقوا الهواء...! ذلك أن القصيدة من البداهة بحيث لا تتطلب أمرا بها ودعوة إليها إنما يتجه القرآن وتتجه الأحاديث السوية مباشرة إلى الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها وأحلاقياتها وعن المسؤوليات المتبادلة بينها وبين الأمة.

إن قيام دولة في أي أمة أمر بدهي تتطلبه طوائع الأشياء وتقتضيه منن الاجتماع البشري .

وهذا ما أدركه الإمام علي بفطرته وذكائه حين قال:

"لابد للناس من إمامة - برة كانت أو فاجرة.."

قيل: يا أمير المؤمنين، هذه البرة قد عرفناها، فما بال

الفاجرة..؟؟

قال: يقام بها الحدود.. وتؤمن بها السبل.. ويحاهد بها

العدو.. ويقسم بها القىء.."

قيام الدولة أيا كان لونها أمر ضروري بقدر ما هو يديهي.
 وإما كان اهتمام المرآة والسنة بالسبح الذي تقوم عليه الدولة في
 الإسلام - أي بمميزات وخصائص وسمات الدولة المسلمة - فإذا قال
 القرآن للرسول ﴿ اخْكُم بَيْنَهُمْ ﴾ فإنه يسعها بقوله ﴿ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ ﴾.. وإذا
 قال له ﴿ لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أتعها بقوله ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾.
 ومعنى هذا أن الإسلام يشد نوعا معينا من الدول والحكومات، هو
 الذي يلتزم بتعاليمه ومبادئه وتعاليمه.
 وتعالج أحاديث الرسول الأكرم الموضوع شمول ووضوح. ولبدأ
 بهذا الحديث العجيب.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من مات وليس له إمام، مات ميتة جاهلية".

والمراد بالإمام في الإسلام إذا أطلق، "الحاكم" أي "الدولة" فأى
 توكيد لدورها، بل أى تقديس أكثر من هذا الذى يرى؟
 لا يحق لأى إنسان رشيد أن يعيش فى القلاة كالحمير الوحشية ليس
 له مجتمع يؤويه ولا دولة تحميه.. ومهما يبالغ المسلم فى القرار بدينه
 من الفتن، فلا بد أن يكون له اسماء يربطه بأسمه ودولته، وإلا عاش آفيا،
 ومات - كما قال الرسول - ميتة جاهلية.

إن الدين الذى يقول رسوله هذا الحديث لا يمكن أن يساهم فى م
 الدولة. بل لابد أن تكون الدولة أصلا من أصوله الراسخات.

ثم لطالع هذا الحديث للرسول عليه السلام.

كانت بنو إسرائيل نسوسهم الأنبياء عليهم السلام كلم
 هلك نبي خلقه نبي.. وأنه لا نبي بعدى، وسيكون بعدى

خلفاء فيكثرون..

قال أصحاب الرسول: فما تأمرنا ؟؟

قال: أوفوا ببيعة الأول..

فهو يحفظ الرسول الدولة المسلمة من الانشقاق والصدع، ويسبب
'نها ثمرة' البيعة' و'الشورى' دليل قوله عليه السلام "أوفوا ببيعة
الأول".

ولكأنما كان الرسول يقرأ ويطالع مستقبل الدولة المسلمة، وما
ستعرض له من فنن واحتناقات، بل لقد طالع هذا المستقبل فعلا حين
قال:

"الحلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك"

يقول الصحابي راوى الحديث "لعد حسا حلافة أبي بكر وحلافة
عمر، وحلافة عثمان، وحلافة على فوجدناها ثلاثين سنة"

ويأمر الرسول بـ احترام بعه الأمة للخليفة الذى تختاره بك من
مشيئتها ويدعو إلى رفض من نازعه الأمر بغير حق وسلطان وبحكم
بـ تحريمه بـ بقتله . يقول عليه السلام:

"من أتاكم وأمركم جميع على رجل يريد أن يشق عصاكم
أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه"

ومرة أخرى نلفت النظر إلى قوله عليه السلام وأمركم جميع "أى
أن الإمام لقائم ثمرة إجماع من الأمة على تنصيبه واحتبائه.

ونقوم الدولة بكل مسئولياتها تجاه الأمة.

يقول عليه السلام:

"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيه فالإمام راع ومسئول

عن رعيته.."

والبحكم المسمم يكرس حياته لخدمة الأمة وإصلاح حالها وأمرها وهو لهذا لا يعيب قط عن قصاياها ومشكلاتها.. بل لا يعيب عن حاجه أى فرد من أفرادها.

يقول عليه السلام:

"من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين، فاحجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة" ..

والحاكم عادل ومقسط:

"إن المقسطين عند الله يوم القيامة على ما بر من نور عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا" .

والدولة المسلمة لا تخدع الأمة ولا تعشها ولا تعاملها بظاهر جميل يخفى باطناً قبيحاً.

يقول عليه السلام:

"ما من عبد يسترعه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة" .

و لحاكم المسلم وجميع ولاته على الأقاليم مسئولون أمام الله ثم أمام الناس عن سلوكهم، وعن مدى التزامهم بتعاليم الإسلام الحنيف. والحاكم مسئول عن ولاته الذين يجب أن يختارهم وفق رأى الإسلام فيهم، لا وفق هواه.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصالح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مؤكدا معنى الحديث:
"من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين".

يقول الإمام ابن تيمية^(١):

"ويجب على كل من ولي شيئا من أمر المسلمين أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصالح من يقدر عليه ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية، بل يكون ذلك سبب المنع".

"إن عدل عن الأحق الأصالح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما أو صداقة أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه على الأحق والأصالح، أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله و لمؤمنين، ودخل فيما نهى الله عنه بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(١) الياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية.

"إن الوالي الذي يؤدي الأمانة مع مخالفة هواه يشبه الله
 ويحفظه في أهله وماله بعده.. والمطيع هواه يعاقبه الله
 بنقيض قصده، فيذل أهله، ويذهب ماله."
 "قال بعض الناس لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: يا
 أمير المؤمنين أفقرت - أفقرت - أفواه بيك من هذا المال
 وتركتمهم فقراء لا شيء لهم، وكان في مرض موته، فقن:
 أدخلوهم علي، فأدخلوهم فلما رأهم درفت عيائه ثم قل: يا
 بى، والله ما منعكم حفا هو لكم وما كنست لأحد أموال
 الأمة فأدفعها إليكم. وإما: أسم أحد رحلتي إما صالح،
 فأن الله يتولى الصالحين وإما غير صالح فلا أحب لكم من
 تستعينون به على معصية الله.."

ثم يقول ابن تيمية رضي الله عنه:

"فأرك الله له في ولده وأغناهم حتى أن أحدهم سارع في
 إحدى العزوات مع الروم بمائة فرس للمجاهدين."
 "حدث هذا من عمر بن عبد العزيز وهو خيمة المسلمين
 من أقصى المشرق ببلاد الترك إلى أقصى المغرب
 بالأندلس.. ومن جزيرة قبرص وثغور الشام إلى أقصى
 اليمن.. ولقد كان يصيب كل من أنائه من تركته وميراثه
 أقل من عشرين درهما."
 "بينما كان هناك أحد الحكماء، اقتسم بنوه تركته فكان

نصيب كل فرد منهم ستمائهُ ألف دينار.. ومع ذلك فقد كان بعض هؤلاء الأبناء يكفون الناس بعد ما أصابهم من فقر وفاقة..

أجل - الحاكم وولاته مسئولون عن الأمة..
و لأئمة والتعفف هما مقياس صلاحية الحاكم والولة، والذين يصلهم أموال الناس وظففة ومصيب فإن مسئوليتهم عن الأمانة تفوق كل نقدير..

إن الذي يرى الرسول وهو يواجه خيانة من مال الشعب أو سعيها في إنفاق ليرى أمرا عجبا.

فهذا ، لرسول الرحيم العظيم الذي طالما التمس المعذرة ورجا رحمة الله للخطائين يقف أمام الحيانة أو التحوز في مال الأمة وكأنه لا حبة له أند.. ولأول مرة تراه يستحي أن سأل ربه المغفرة لآثم، ذلك لأن الآثم هذه المرة حائن، خان مال الأمة وهو عبد الله إثم مبین.

أهدى رقاعة بن ريد للرسول عليه السلام خادما.. وفي غزوة وادي القرى أصابه سهم وهو ينزل رحل الرسول، فأقل الصحابة على الرسول يعزونه، ويقولون: هنيئا له يا رسول الله فقد مصى شهيدا فأجابهم الرسول قائلا:

"وما يدريكم؟ إن الشملة التي أخذها من المعانم يوم خيبر، لتشتعل عليه نارا.."

شملة.. شمله تساوى درهما أو بضعة دراهم يطارد إثمها آخذها حتى وإن مات شهيدا.

ألا إنه لولاء للأمانة ليس له نظير..!!
 إن كل قرش بدله واني أو موظف أو حاكم خلسه أو جهرة دون أن
 يكون له فيه حق لهو غلول وخيانة.
 يقول الرسول عليه السلام:
 "من استعملناه على عمل، فرزقناه رزقا، فما أخذ بعد ذلك
 فهو غلول".

إن العلاقة بين الوالي والأمانة تبلغ في أحاديث الرسول عليه
 الصلاة والسلام مبلغا عظيما من التفديس.. فهو - مثلا - يرفض رفضا
 مطلقا أن يقبل الوالي أو الموظف هدية - مهما تكن - جزاء عمل أداه
 يدخل في نطاق واجبات ولايته ووظيفته، إن هذا يفتح بابا خلفيا للخيانة
 والتفريط في الحقوق العامة.

وقف عليه السلام خطيبا ذات يوم وقال:
 "أما بعد، فإني أسعمل الرجل منكم على عمل مما ولاى الله.
 فيأتي ويقول: هذا لكم، وهذا أهدي إلي..
 هلا جلس في بيت أبيه حتى تأتبه هديته إن كان صادقا؟"
 "والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بعير حقه إلا لفي الله يحمله يوم
 القيامة.. اللهم قد بلغت".

إن الرسول ليحدث عن "أمانة الحكم" بأهم م عظيم، ويبقى
 تعاليمه لهدية المصينة إلى الحكام، والولاء، والفضاء، وإلى كل من
 يحمل مسؤولية في الدولة.

يقول عليه السلام عن الإمارة:
 "إنها أمانة، وإنها يوم القيامة حزي وتدامة، إلا من أخذها

بحقها، وأدى الذي عليه فيها .

ولأن الحكم "أمانة" ومسئولية عظيمة لا ينهالك عليها إلا جاسر بعداحتها، ولقد كان الرسول يرفض أن يولى أحدا ولاية أو إمارة يسألها ويرنو إليها.

ذهب أحد أصحابه يوماً يسأله أن يوليه إحدى الولايات، فقال:

"إنا والله لا نولى هذا الأمر أحدا يسأله أو أحد يحرص عليه"!!

ويوصي عبد الرحمن بن سمرة قائلا:

"يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فبئس إن سألتها وكلت إليها.. وإن أعطسها بغير مسألة أعست عليها"^(١)

قد يكون رفض الحكم، أمرا ميسورا للرجل الورع، لكن الصعب بالنسبة إليه هو تقلد الحكم، وتحمل مسئوليته الشداد. ومن المريح لك أن نصع عرك هلك الحمل الثقيل الذي يؤود الاشداء من الرجال، ولكن الصعب جدا أن تحمله ويمضي به السنوات الطواله.

لذلك لا نحد المهاقين على السلطه إلا من بين النهمين لشهوات الدنيا من مصيب ومال وجه والفرغين عمولا وأفئدة.

ولعل خير تعسر عن هذه الحقيقة ينمش في قول الإمام على كرم الله

وجهه:

"أما والدي فلق الحنة، وبرأ السمعة، ولولا ما أخذ الله على

(١) راجع كتابنا - كما تحدث الرسول

لعماء إلا بفاروا على كظه ظالم، وسغب مطبوم لألقيت
حبلها على غاريها، وسقيت آحرها بكأس أولها، ولألقسم
دياكم هذه أرهد عدى من عفته عر" !!

وكان يوم يخصف نعله ومعه ابن عمه عبد الله بن العباس، فسأله
الإمام على:

- ما قيمة هذه النعل؟

قال ابن عباس: لا قيمة لها..

قال الإمام: والله لهي أحب إلي من أمرتكم، إلا أن أقيم حقاً، أو
أدفع باطلاً..!!

* * *

واحتبر الدولة لولاتها يحب أن يتم وفق مقاييس الإسلام الممثلة
في أن يكون الوالي كهوا وعدلا وصادقا وأمسا. ولاية يصحون الدولة
ولا يعشونها، بواجهون الحاكم ولا يتملمونه، نخلصون للحق ويجمعون
ولا أهم له من دون الناس.

يقول الرسول عليه السلام:

"إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق؛ إن نسي
ذكره.. وإن ذكر أعانه..

"وإذا أراد به غير ذلك، جعل له وزير سوء؛ إن نسي لم
يذكره.. وإن ذكر لم يعنه."

إذن فاختيار الولاية الأكفاء من صالح الحاكم قبل أن يكون من
صالح الأمة، والحاكم الذكي، والوالي الذكي أيضا هو الذي لا يبيع

دينه بدنيا غيره.

إن الدولة تقف بكل مؤسساتها على الهوة الفاغرة والمزلق الوعر
إذا هي اسندت أمورها لغير الأكفاء والأمناء. وإذا هي آثرت
المنافقين والجبناء.

وإذا كان اختيار الولاة الصالحين واجب الحاكم، فإن اختيار
الحاكم الصالح واجب الأمة.
وهذا ينقلنا إلى الحديث عن شكل الدولة المسدنة وكيف تشكل
وتقوم.



٧

إذا ألقينا نظرة على العالم حوالينا ألقينا الدولة في كل بلد انعكاسا للمبادئ والنظريات السياسية التي يعارسها ذلك البلد.. وتتحكم الأوضاع الاقتصادية إلى حد كبير في تشكيل نوعية الدولة، ورسم خصائصها.

والدولة المسلمة لا تخرج عن هذه القاعدة، فهي انعكاس لمبادئ الإسلام وقواعده وخصائصه.

وأول ما يواجهها ونحن نتحرى هذه الخصائص والمبادئ، مبدأ الشورى..

فالإسلام دين الشورى بكل ما تحمله الكلمة من معنى وشمول وبالنسبة فإن شكل الدولة القائمة باسمه المستطلة برأيه لا بد أن يكون "شوريا" وقد تنزل القرآن على الرسول بأمره أمرا واضحا ووجبا أن يدير أمور أمته عن طريق الشورى فيما لم ياب القرآن فيه بحكم صريح.

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه:

﴿يَا أَيُّهَا رَسُولُ اللَّهِ إِنَّكَ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ. فَاعْمُ عَنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَخَاوِرْهُمْ فِى

الأمر.. فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴿

ويصف الإمام الرازي أظارنا إلى معسى رائع تعطيه هذه الآية الكريمة، ذلك أنها نزلت في أعقاب "غزوة أحد" تلك الغزوة التي لم يكن النبي يرى فيها الخروج من المدينة لملاقاة قريش خارجها، بيد أن الأغلبية من أصحابه رأوا غير ما رأى، فنزل النبي على رأيهم، وخرج على رأس جيشه لملاقاة جيش الشرك ودارت الحرب عند جبل أحد، وحدث فيها ما حدث للمسلمين من محن شداد
في أعقاب هذا الذي حدث نزلت الآية الكريمة تقول للنبي عنه السلام:

"وشاورهم في الأمر".

أي لا تجعل ما ظهر من خطأ رأيهم سبباً لتجنبك الشورى، فإن الخطأ مع الشورى أسلم من الصواب مع التمرد بالرأى..!!
وهذا الموقف بين الله ورسوله لا غرابة فيه ولا عجب، مادام الرسول يبعث ليعلم الناس ويهديهم سواء السبيل.. إن سواء السبيل هنا وفي هذا المجال هي الشورى التي لا تعرف الملل ولا الاستعلاء
أجل.. نزل الوحي عليه بعد ما حدث له ولعمه حمزة ولأصحابه بسبب الشورى ما حدث. نزل ليأمره بالمزيد من الشورى..!!
ولقد حذق الرسول الكريم الدرس الذي لقنه الوحي إياه، فعاش بقدس الشورى في كل أمر، ويرسخ ذلك في روع أصحابه.
فيقول لهم:

"ما تشاور قوم قط إلا هُتِدُوا لأرشد أمرهم"

ويصفه صاحبه أبو هريرة رضي الله عنه فيقول:

"لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ"

ولقد مضى سلوك الرسول على هذا النهج من الاهتمام بالشورى وإخضاع كل قراراته لها حتى في أشد المواقف وأكثرها حرج وتجهماً..

ولنضرب لهذا مثلاً آخر:

في غزوة "الحندق" وهي تكاد تكون أخطر العزوات التي واجهها الرسول والمسلمون، إذ أقبلت قريش ومن تبعها من أعراب كدبة وتهمة في عشرة آلاف مقاتل شديدي المراس ومعهم يهود بني النضير، ومن الداخل كان هناك يهود بني قريظة نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ وانضموا إلى الغزاة.

وبكفي في تصوير هذا الموقف الرهيب أن نسمع لكلمة القرآن فيه:

﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ رَأَعَتْ الْأَبْصَارُ،

وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ

الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ !!..

في هذا الموقف الصاعق رأى النبي أن يقلل من عدد مهاجميه وذلك بأن يصرف "غطفان" عن هذه الحرب وعن حلفها مع قريش، وفكر عليه السلام أن يرسل إلى قائد غطفان، ويعرض عليهما ثلث ثمار المدينة وغلتها على أن يسحبوا من الجيش المهاجم ويرجعوا بقومهما.

وفي هذا الهول لم يمس الشورى، فعرض الأمر على سادة الأوس والحزرج في المدينة فأبوا هذا الصلح واعتبروه إدلالاً لهم وهواناً فنزل عليه السلام عند رأيهم مسلماً أمره إلى الله منوها بركة الشورى.. ولقد

كانت مباركة حفا، فقد هزم اليأس جيش قريش وحلفائها، وسحر الله ريحا وعواصف اقتلعت حاميهم وأطعاب بارهم وكفأت فدورهم وأدھلنهم عن أنفسهم فصاح بهم "أبو سفيان" صبحه الفرار والحدلان واليأس وانقلبوا إلى مكة صاغرين.

* * *

وكان عليه السلام بقول لأبي بكر وعمر:
"لو ذهبتما لرأى ما خالفتكما".

لس احتراماً للشورى وحسب، بل ولأن الشيخين أصبحا بصونهما يشكلان عليه نجاه الصوت الواحد، وإن يكن صوت الرسول ﷺ !!
ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من أئمن خصال المؤمنين وصفتهم. قال تعالى:

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
وَالَّذِينَ يَخْتَبُونَ كِبَاءَ الْإِثْمِ وَالْمَوَاجِشِ، وَإِذَا مَا عَصُوا هُمْ
يَعْفَرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَأَمْرُهُمْ
شُورَى بَيْنَهُمْ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

ولقد أخذ الحلفاء الراشدون بواجب الشورى في حزم ويقين.
ويحدث ابن القيم "فلا عن التابعي الكبير" ميمون بن مهران "أنه
قال:

"كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى،
فإن وجد فيه ما يفصى به فصى به. وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة

رسول الله ﷺ ، فإن وجد ما يقى به قصى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله صلى فيه بقضاء، فربما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا، وكذا.. فإن لم يحد مئة سننها رسول الله جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به، وكان - عمر - يفعل ذلك..^(١)

فحكومة أبي بكر وعمر لم تكن كما يصور البعض حكومة "مستبد عادل" .. ولقد عرّضت لدحض هذا الرأي في مقدمة كتبي "وجاء أبو بكر"، قلت: إن الذين يرون في أبي بكر وعمر مستبدين عادلين إنما يجانبون الصواب.

أولاً: لأنهما لم يكونا مستبدين ساعة من نهار.
وثانياً: لأنه ليس هناك شيء اسمه "المستبد العدل".

فلاستبداد والعدل ضدان لا يجتمعان وتقصا لا يلغيان، وأن أحدهما ليختفى فور ظهور الآخر، لأن أبسط مظاهر العدل أن يأخذ كل ذي حق حقه.. وإذا كان من حق الناس - وهذا مقرر بداهة - أن يختاروا حياتهم وحكامهم، ويمرروا مصايرهم، فإن ذلك يقتضى في نفس اللحظة نفس السبب اختفاء الاستبداد.

ولقد كان "أبو بكر، وعمر" رضى الله عنهما على بصيرة من هذا وعلى الرغم من أنهما والأمة معهما كانا خاضعين خضوعاً مطلقاً لما أرى الله من كتاب فقد أتاحا للمسلمين كل فرص المناقشة والمعارضة والاختيار.

ربما يذهب الظن بالبعض إلى أن "أبا بكر، وعمر" لم يكونا حاكمين ديمقراطيين لأنه لم يجاورهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة من برلمان ودستور ومعارضة وصحافة حرة. بيد أن وضع المسألة على هذا النحو بشكل خطأ كبيراً.. وإنما يستقيم الفهم إذا نحن أجبنا عن هذا السؤال:

- هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية النسي عرفها لعالم حدث، هل كن عيبها عن الدولة المسلمة يومذاك راجعا إلى كفران الخليفين بهذه المؤسسات؟

والجواب بيقين: لا - وغياب هذه المؤسسات لا يعني أكثر من كونه تعبير عن نظم ذلك العصر السعد في جريته العرب بن وفي معظم بلاد العالم منذ ألف وأربعمائة عام. لقد حقق، لحليمان على أوسع مدى الجوهر الحي للديمقراطية من خلال إيمانها العميق بكرامه الإنسان، ومن خلال الأشكال والتطبيقات التي كانت تلائم عصرهما.

● فإذا كانت الدولة المسلمة في عهديهما لم تشهد قيام معارضة برلمانية منظمة لمقدان ذلك في بينهما وعصرهما، فإن المعارضه نفسها كانت تمارس بأسلوب فعال وعميم.

● وإذا كانت الدولة يومئذ لم تشهد قيام برلمان يراقب الحاكم ويشرع القوانين، فإن الشورى يومئذ كانت شعيرة من شعائر الله، وكانت حقا مقدما للجماعة كلها.

● وإذا كان الطور يومئذ لم يهني قيام صحافة حرة، فإن الكفمة الصادقة الشجاعة كانت على كل لسان، يصعق الحليمه إليها، ويشب

عليها..

ولو أن الخليفة العظمى "أبا بكر، وعمر" بحكماني في عصرنا هذا لأعطا التحريه الإنسانية في النظام الديمقراطي الرشيد كل احترامهم، ولا تنمعا بها إلى أبعد مدى، ولا حدا من أشكالها الحديث ما يحقق جوهرها ويعبر عن خصائصها.

صحيح أن ذلك لم يكن سيتم بصورة مطلقة بل كان سيتم داخل إيمانهم المطلق بالدين الذي آمنوا به واتبعوه.. على أنه مع وجود هذا التحفظ لن يمس ذلك من قدرهما كحاكمين ديمقراطيين.

ذلك أن أي حاكم ديمقراطي إنما يعمل داخل حدود الدستور لعادل القائم في دولته.

وأبو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور الف لم في دولتهما..

لقد كان للقرآن في أمهم من الولاء والإجلال والاهمية أكثر مما للدساتير في كل دول الدنيا.

ولقد تضمن القرآن العظيم مبادئ من أعظم مبادئ الديمقراطية.

ولاهما - أنه جعل الشورى واجباً مفروضاً في دولة الإسلام.

وثانيهما - أنه لم يلزم بطاعه أحكامه واعتساق مبادئه إلا من يقره ويختاره ويؤمن به.. أي بلغة عصرنا الحديث: "من يفتزع عليه بالمواقفه" أما الآخرون الذين لم يؤمنوا به من أهل الكتاب - يهود ونصارى - فلم أن يعيشوا وفق عقائدهم، ويحاربوا أسلوب حياتهم.

صحيح أن القرآن "دستور" لم يضعه الشعب، ولكنه دستور رصيه الشعب، وآمن به واقتنع عليه، واستشهد في سبيله

فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول ﷺ وساروا معه آمنوا بأن القرآن وحى من عند الله وعليهم طاعته، ولم يكرههم أحد على الإيمان به. ولقد حمل "الصديق أبو بكر" بعد الرسول مسئولية قياده الأمة وفق هذا الإيمان. ثم حمل "الماروق عمر" المسئولية بعد أبي بكر وفق هذا الإيمان أيضا.

وإذن فالمعيار الصحيح الذى يورن به حكمهما وديمقراطيهما هو مدى احترامهما لهذا العرآن.. لهذا الدستور، الذى آمن به المسلمون واحتاروه قانونا ومنهجيا لحياتهم.

* * *

ولقد تحدث الفقهاء طويلا عن كون الشورى ملزمة أم غير ملزمة، أى هل ينتهى دور الشورى عند إبلاغ الحليفة أو الحاكم بها ثم له بعد ذلك أن يأخذها وأن يرفضها. ويهدا تكون غير ملزمة..؟ أم أسها ملزمة وواجب على الحاكم الأخذ بها. وعدى أنها ملزمة، ثم ملزمة ولو لم يكن كذلك لما كان من ورائها جدوى ولا فائدة.

لأنه إذا كان المراد من الشورى نصيب وجهات النظر وصولا إلى الصواب، فإن فى الوحي عناء عن هذه المحاولة. ولن يفعل أن ينحرف لوحي عن رسول الله ﷺ فى موقف خطير كموقف الحرب فى غزوة أحد وغيرها.

وإذا كان العرض من الشورى مجرد ترصعة شكلية للمسلمين فإن فى ذلك إحباطا وتشيطا، بل وإهانة للشورى والمستشارين يحل عنها

مقام الرسول.

إذن يتعين أن يكون المراد من الشورى تمكين الأمة من حقها في أن يكون لها رأى محسوب في تقرير مصايرها، ويكون هذا الموقف بين الرسول والمسلمين مقصودا لتدريب الأمة على يد رسولها وفئتها.. تدريبها على ممارسة حق الشورى الذى هو من أهم وأجل حقوقها. ثم إن موافق الرسول وحلفائه من الشورى بدحض الرأى القائل بعدم الإلزام.

إن الرسول الذى كان معه الوحي يصبحه ويمسسه، أمره الله وأوجب عليه أن يشاور أصحابه. ورأينا كيف خضع للشورى فى أشد المواقف هولا وضراوة.

* * *

ولكن ماذا تعنى "الشورى" بلغة عصرنا الحديث الذى نعيشه ولا نستطيع منه فككا، وقدما قبل، ولعله حديث سوى.
"ألمس بزمانهم، أشبه منهم بآبائهم".

ما الشكل الذى يجب على الدولة المسلمة أن تكونه وقف نمبدا الشورى، ومتابعة لروح العصر..؟؟

هل يكفى اليوم أن يكتفى الحاكم بمشاورة أهل الحل و لعقد، والشعب هناك قابع فى مسكة وضياع كالمُعد الصرير..؟؟

ومن هم أهل الحل والعقد..؟؟

إن هذا السؤال يرفض كل تجاهل له، وبدحض كل جن عن مواجهته.

وعندى أن المفهوم الحديث للشورى التى ركةا الإسلام هى:

الديمقراطية البرلمانية..

أن يسحب الشعب نوابا عنه يمثلون إرادته ومشيبته، ويحترون أو يحترقون لشعب كنه معهم الحاكم الذي يرأس الدولة ويقودها - ويكون هؤلاء النواب حراما على حقوق الأمة لدى الدولة يؤيدون الحاكم إذا صلح، ويقاومونه أو يعزلونه إذا زاعج واحرف
وهؤلاء النواب عدى هم "أهل الحل والعقد" لاسيما إذا طعم المجلس السي في أمة ما ببعض الكفايات المتخصصة ولو بتعيين المحدود.

وهذه الديمقراطية تفتح درا عيها للمعارضة داخل المجلس وخارجه عن طريق البرلمان والصحافة وكل وسائل الإعلام، فإن الديمقراطية بلا معارضة تعنى الديمقراطية بلا ديمقراطية...!!
وقديما قلت:

"إن أفضل علاج لأخطاء الديمقراطية، هو المزيد من الديمقراطية"

هذه حقيقة نود للمستمكن بالدولة الإسلامية أن يعوها جيدا.. فلا يقولن أحدهم: نظام دولتي الشورى ثم يمضي!! لابد من ترجمة هذه الكلمة إلى منهج سياسي مفصل..
ولقد أفصى بي البحث إلى أن الشورى هي اليوم "الديمقراطية البرلمانية" ولا تزيد..

ولن يكون ثمة حرج ولا بأس إن نحن أضفنا إلى تراثنا السياسي بعض النظم السياسية المعاصرة، فإن مجرد استحداث الإسلام لها وتدويرها بحوهر مبادئه سيجعلها إسلامية، كما أصبحت بعض الكلمات

الأجبية في القرآن عربية بمجرد استخدام القرآن لها .
 إن الحكم في الإسلام ليس حكما مطلقا، ولا تسلطا وقهرا، ولكنه
 حكم شوري، حكم ديمقراطي بأصدق معاني هذا التعبير .
 وهو في نفس الوقت عقد بين الله والحاكمين أن يشعروا بالإيمان
 ويقبموا العدل، ويكونوا أماء على مصالح الناس ومصايرهم .

* * *

وبالتفسير الذي أسعاه للشوري يدرك في وصوح أن الحاكم ليس
 ملاكا يتنزل على الناس من السماء.. إنما هو بشر، ومواطن يختاره
 الشعب بكامل حريته ومحض إرادته ليحفظه ويقوده وفق الدستور
 والقانون.

ورئيس الدولة في الإسلام، ليس من شغل منصبه بالتعيين ولا
 بالوراثة، ولا بالعهد الذي لا تقره الأمة وترضاه .
 ذلك أن الأمة لا تنعقد لأحد إلا بالاختيار والاتفاق .
 قال علماء الفقه "الإمامة عقد" فالبيعة شرط أساسي لقبم رئيس
 لدولة.. رد العقد يكون دائما بين طرفين، والطرف الأول لعقد الإمامة
 هو الأمة^(١).

يقول العبادي في كتابه "أصول الدين".

"قال الجمهور الأعظم من أهل السنة ومن المعرلة ومن
 الحوارح أن طريق ثبوت الإمامة هو الاحتيال من الأمة"
 ولهذا نجد أن الإمام عندما يريد برك الإمامة فليس ثمة من يملك
 حق إعفائه سوى الأمة، وهذا يدل على أنها هي التي تمكك حق توليته .

(١) النظريات السياسية الإسلامية.

هذه نظرية الإسلام.

فالإمامة أو الخلافة هي حق الأمة، والأمة في الإسلام هي مصدر السلطان.. وهي بمجموعها أو عن طريق نوابها المتعيين منها التي تختار رئيس الدولة الذي لن يكون أكثر من وكيل للأمة بصرف أمورها وشئونها.

وقد يبدأ اختيار الإمام من أهل عاصمة البلاد التي ستحكمها، ولكن ذلك لا يكفي، بل بسعةبعة الأمة كلها نفسها أو بنوابها. يقول الماوردي^(١).

"وليس لمن كان في بلد الإمام على غيره من أهل البلاد فصل مزينة.. وإنما صار من يحضر بلد الإمام متوليا لعقد الإمام عرفا لا شرعا لسوق علمهم بموئده، ولأن من يصلحون للخلافة في الأغلب موجودون في بلده".

ويقول أيضا:

"إن عقد الإمامة عقد مراضاة واختيار، لا يداخله إكراه ولا إجبار".

وهذا تعريف رائع للإمام قاله الإمام "أحمد بن حنبل" عندما سئل عن معنى قول الرسول عليه السلام: من مات وليس له إمام مات مائة جاهلية - فقال أحمد:

"أندري من الإمام؟؟"

"الإمام هو الذي يجمع عليه المسلمون، كلهم يقول: هذا الإمام.."

(١) الأحكام السلطانية.

ولا بد لنوضح هذا الأمر الرجوع إلى عهد الراشدين لنوضح بعض ما عساه أن يبههم علينا.

فلخبة الأول "بو بكر الصديق" رضى الله عنه لم اختاره لا تعيينه. إذ لم يعهد الرسول لأحد بالخلافة من بعده - وفي هذا إشارة واضحة إلى أنه عليه السلام احتفظ للأمة بحقها في الاختيار.

تمت الخلافة لأبي بكر بالبيعة من بعض المسلمين يوم السقيفة ومن بقسهم في اليوم الثاني، ثم توالى البيعة من الأنحاء.. صحيح أن عمر بن الخطاب "هو الذي بدأ بالبيعة وصمم عليها، ولكن ذلك لا يعنى أنها كانت بيعة فرد بل كانت بيعة أمة، بيعة المهاجرين والأنصار الذين كانوا قد بايعوا الرسول من قبل وآزروه ونصروه.

بقول ابن تيمية في كتابه "منهاج السنة".

"لو أن عمر وطائفة معه بايعوا أبا بكر، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يضر أبو بكر إماماً بذلك - وإنما صار إماماً بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة".

وكذلك يقول الإمام الغزالي: (١)

"لو لم يبايع أبا بكر غير عمر، وبقي كافة المسلمين مخالفين أو انقسموا انقساماً متكافئاً لا يتميز فيه غالب عن مغلوب لما انعقدت الإمامة".

وأمر المؤمنين "عمر" نفسه يدرك ذلك ويحضر الأمة على أن تحتفظ بحقها في الاختيار.. وفي الخطبة الشهيرة التي ألقاها عقب

(١) الرد على الباطنة - تملاً من النظريات السياسية الإسلامية.

عودته من موسم الحج قال:

.. فمن بايع رجلا عن غير مشورة المسلمين، فإنه لا بيعه له
هو ولا الذي بايعه."

* * *

فرن عهد الإمام القائم بالأمر لآخر من بعده - كما فعل أبو بكر مع
عمر - فلا بد من توافر شروط الإمام فيمن يعهد وفيمن يعهد إليه من أمانة
ونزاهة وكفاءة وورع وإخلاص. ثم لابد من توثيق هذا العهد برضاء
الامة أو الأغلبية منها وإقراره.

أما نوريث اس أو قريب غير صالح للإمامه، وليس معه من شروطها
وصفتها شيء، إلا ما يصله بالموصى من قرابه أو صهر، فهذا مضاف
لروح الإسلام ووجهته.
يقول ابن خلدون^(١):

"وأم أن يكون المراد بالعهد حفظ التراث على الأبناء
فليس من المقاصد الدينية، وينبغي تجنبه خوفا من العبث
بالمناصب الدينية."

وعلى أن يدرك جيدا أن اختيار أبي بكر لعمر لا يعنى فقدان
العامل الديمقراطي في اختيار الخليفة.

فأبو بكر اختار عمر لا بصفته الشخصية، بل بوصفه خليفة نبوا
منصبه هذا باقتراع الامة عليه واحيارها إياه، فكأنه نقل بيعه الامة منه
إلى من اختاره.. ثم إنه اختار أصلاح المسلمين لهذا المنصب في تلك
الظروف.. ثم أنه قبل اختياره استشار جمهرة الصحابه وقادتهم

(١) المقدمة.

يقول الطبري في تاريخه^(١):

"إن أنا بكر لم يكتب عهده لعمر إلا بعد أن استشار كبار الصحابة وهم قادة الرأي وموضع ثمة الأمان فأثوا كلهم على عمر، وقال عثمان بن عفان: [اللهم إن علمي به أن سريره خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله].

"ولما أتم استشاراه أشرف على الناس فقال لهم: [انصوبوا بمن أمتحلف عليكم؟] فإني ما ألوت من جهد الرئي، ولا وليت ذا قرابة، فقالوا سمعنا وأطعنا".

ثم، وهذا هو الأهم فإن جميع المسلمين في شتى الأنحاء وافقوا يومئذ على تصيب عمر خليفة ولم يبق أحد بالاعراض مع قدرتهم على ذلك لو أرادوا بدليل ما حدث في أواخر عهد عثمان.. وكذلك لم يكن بيعة "عثمان" من الستة الذين اختارهم "عمر" لترشيح الخليفة وابعاده، بل كان.. وهنا نترك الحديث لابن تيمية الذي يقول: ^(٢)

"إن عثمان لم يصر إماماً باختيار بعضهم، بل بمبايعة الناس له. وجمع المسلمين بايعوا "عثمان بن عفان" ولم ينحلف عن بيعته أحد.. قال الإمام أحمد: ما كان في القوم من بيعة عثمان كانت بإجماعهم. وإلا لو قدر أن عبد الرحمن بن عوف بايعه ثم لم يبايعه علي ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصر إماماً".

"ثم إن ابن عوف حلف أنه أقام ثلاثاً لم يعتض فيها بنوم

(١) الجزء الأول.

(٢) منهاج السنة

بشاور السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان ويشاور
 أمراء الأنصار فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان.
 وقدموا عثمان وباعوه، لا عن رغبة أعطاهم إياها، ولا عن
 رهبة أخافهم بها".

وأبداً يكن لأمر، فإن روح الإسلام وروح ما أسفنا من وقائع ثم
 روح العصر الذي نعيش فيه نحتمان قيام البيعة لرئيس الدولة بالشورى
 والاقتراع الحر الذي يسرب أسبابه فأصبح من المستطاع معرفة رأى
 الأمة فيمن تختاره لرئاستها وتقترع عليه في يومين أو ثلاثة مهم يسغ
 تعدادها وتتسع رقعتها.

وعلى اختيار الشعب لحاكمه يتوقف مستمله القريب والبعيد.
 ومن الظواهر الصادقة أنه كلما كانت الأمة عالية في مستواها
 الحضارى، كان اختيارها لحكامها صائباً وسديداً
 والإسلام بعدما أن سوء اختيار الحاكم إيذان بضباع الأمة.
 يقول عليه السلام:

"إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"

أى إذا ولي الحكم فى أمة من الأمم من لس أهلاً له، فانتظر ساعة
 هذه الأمة تدق، معلنة ضياعها وهلاكها...!!
 والحكم المسلم يحقق أمرين لا بد منهما - القدوة الصالحة،
 والعدالة الشاملة.

إنه يرث رسول الله فى منصبه كفائد دولة، لهذا كان حتماً عليه أن
 يسير على نهج الرسول واستطاع إلى ذلك سبيلاً.
 ويصف الإمام على الحاكم المسلم فى شىء من التفصيل فنقول:

" لا ينبغي أن يكون الوالي على الأعراض والدماء
والمعانم والأحكام وإمامة المسلمين بحيلة، فتكون
أموالهم بهمة.. ولا جاهلاً، فيقتلهم بجهل.. ولا جافياً،
فيقطعهم بجفاء.. ولا خائفاً من الدول، فيتخذ قوماً دون
قوم.. ولا مرشياً في الحكم، فيذهب بالحقوق ويقف بها
دور المقاطع. ولا معطلاً للسنة، فيهلك الأمة" ..

وللدولة المسلمة طاعة أبنائها ما دامت متحققة بالدين الذي أقامها
ودعا الناس لطاعتها.

بقول عليه السلام:

"اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حشى كآر
رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله".

ويقول عليه السلام:

"على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن
يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

أجل ما أقام فيكم كتاب الله.. أى ما أحترم الدستور الذي تحيا
عليه وتدين به الدولة المسلمة.

فإذا فسق الحاكم وبغى وظلم فلا سمع له ولا طاعة، بل ولا بيعه
وعلى الأمة أن تنبذه وتخلعه.

ذلك أن الدولة كلها وسلطاتها الثلاث جميعها - التشريعية،
والتنفيذية، والقضائية - كل هؤلاء أماء على حكم الله وعلى مشيئة
الشعب.

وأي نوع من الحكم يعطل كتاب الله الذي هو دستور الدولة
المسماة ويحدى إرادة الأمة، ويؤدى بسيادة القانون فلا حرمة له ولا
ذمة ولا بقاء.

ولا نسي مهممة الأمة باختيار، لحكم، بل نبدأ بهذا الاحترار
وتذهب معه كل مذهب، وتراقبه وتعاونه على السر والفوى، وبزجره عن
الخيانة والانحراف.

وهذا ينأتى بوجود رأى عام قوى ودكى.

و لرأى العام فى الدولة المسلمة ضرورة مفروضة، لأنه صمام
الأمان، والعين الثاقبة، والكلمة الطيبة.

والرأى العام، هو الذى أسماه القرآن والإسلام [الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر].

أجل - هذا هو ما سمى اليوم بلغة العصر "الرأى العام" ذلك أن
وظيفة الرأى العام هى متابعة أحداث المجتمع ومراقبة جميع سبطته
وسلطة الضوء على الأخطاء السياسية والأحلاف، والاجتماعية
ومقاومة كل تحدٍ للدسور والقانون، وتصير الآخرين من فئات الشعب
بواجبهم تلقاء المواقف والأحداث.

وهذه تماماً هى وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودور
الرأى العام فى الدولة المسلمة دور ترشد وبناء.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن الله يرضى لكم ثلاثة:

"أن تعدوه ولا تشرکوا به شيئاً".

"وأن تعنصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا"

"وأن تناصحوا من ولأه الله أمركم".

ويقول عليه السلام:

"الدين الصحيح. قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله، وكتابه

ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامهم".

ويقول أيضاً:

"ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم:

- إخلاص العمل لله
- ومناصحة ولاة الأمر
- ولزوم جماعة المسلمين".

فالصح للحاكم أول وظائف وواجبات الرأي العام.. وكلف كان الرأي العام مهذباً جاءت بصادحه مهذبة. فالصح شيء آخر غير التشهير به والحقده عليه.

وإد، توجه الرأي العام بصادحه قلوى الحاكم جده وثى عطفه، فإن ذلك لا يسعى أن يفت فى عصد الناصحن بل عليهم أن ينشبتوا بكلمهم ويرددوها كالنشد، ويديعوها بين الناس حتى يكون حولها رأى عام يصيح فادراً على إبلاعها وإخصاع الحاكم لها.

وكل حاكم يصق بالرأى العام ويحاول حقه فهو فى نظر الإسلام معطل لشريعة من شرائع الله وقريضة من فرائضه. ذلك هى قريضة "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر".

لقد كرم الله هذه الأمة المحمدية لأنها تحيى شعيرة الأمر

بالمعروف و لنهى عن المنكر، فقال تعالى.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾.

وأمدن ولعن قومًا آخرين لأهم اتخذوا عن فريضة الأمر بالمعروف و لنهى عن المنكر فقال سبحانه:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْرَمِ فَعْلُوهُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

وقال عن أحبارهم الذين صمتوا عن كلمة الحق:

﴿ لَوْلَا يَنْتَهِاهُمْ الرِّبَايُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَإِثْنٌ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾.

ووقف خليفة رسول الله أبو بكر يوما حطبا فقال:

"سمعا رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأحدوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب .

ويقول عليه الصلاة والسلام:

"والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولنهنون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن سعت عليكم عذاب منه ثم ندعوه فـلا يسحب لكم".

إلى هذا المدى يزود الإسلام دوله ومحتمعه برأى عام فعاب وبار

ونشيط..

وكما قما، فإن محاولة الدولة إحباط هذا الرأى العام وواده

يعرضها لمقت الله وسخره الناس ويحق عليها المقاومة وضرورة
التغيير.

إن الإسلام يدرك أن الحياة الإنسانية مكتظة بالخطايا والاحطاء
ويدرك أن الله لم يعط إنسانا الحقيقة وحده مهما أوتى من سطة في
العلم والذكاء.

ويدرك أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة . من أجل هذا راح
يحاصرها - إن صح هذا التعبير - برأى عام يقظ ومحلى ورشيد، ينهيه
من كبرياء السلطة وبطامن من غرورها، فإذا نكر الحاكم لهذا الرأى
العام واحتال على إسكانه بالكذب والحدثه، أو بطش به غير متق عليه
ولا مكترث به فقد حرم نفسه قبل أن يحرم الأمة من النور الذى يصىء له
الطريق.

والدولة كما نعلم، تهف على رأس المنظمات الساسية للأمة
ولكى ينهض من حولها رأى عام يساندها إذا صلحت، ويقومها إذا
انحرفت، فلا بد لهذا الرأى أن يكون متمرسا بكل مشاكل الأمة
وفضايها وعلى وعى عميق بها . ولا بد أن يكون له من الفكر السياسى
نصيب موفور، إذ كيف يكون له رأى فى القضايا السياسية دون أن يكون
له علم بها؟

ومن هنا نرى أن الإسلام عبادة وسياسة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم".

فالمسلم الذى يقضى بهاره صائما، وليله قائما، ثم ينقص يده من
مشكلات أمته، ويتخلى عن واجبه المحنوم فى الاهتمام بأمر الأمة

المسلمة لا يكون منها ولا يحسب عليها.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"لأن أمشي في حاجة أح لي حتى تقضي أحب إلي من أن

أعتكف في مسجدى هذا شهراً" ..!!

هذا في حاجة فرد.. فكيف بحاجات أمة، ومشكلات مجتمع،

وسياسة دولة..!!؟



٨

والدولة الإسلامية دولة دستورية لها دستور ينظم حياتها السياسية،
ويكفل حقوق الأمة عليها وحقوقها على الأمة، ولها قوانين سائدة
ومتطورة في حدود علاقاتها بالدستور.

ودستور الإسلام هو القرآن، والسنة، والإجماع
القرآن أولاً.. ثم تأتي السنة والإجماع ومعهم الاجتهاد ليفصلوا
من القرآن ما أجمل، ويوضحوا ما أحكم، ويأبى الفقه الإسلامي فيصع
القوانين المستنبطة من كتاب الله، وسنة رسوله. وإجماع أمته ويشري
الإسلام إثراء هائلا وعظيماً.

ولقرآن دستور الدولة المسلمة يمتار عن كل دساتير الدنا
ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها بأنه ليس من صنع البشر، بل نزيل من
حكم حميد.

وهو بهذه المثابة فوق كل محاولة للتمرد عليه أو التغيير فيه. ثم هو
بهذه المثابة أيضاً أكثر دساتير البشر تمكناً للاستقرار والرسوخ مع
قابلية فذة ودكية لكل مسايرة لروح العصر ويطور الأنظمة، وأن الإنسان
ليقع في حيرة شديده كلما رأى حكومات إسلاميه ومحرمات إسلاميه
تتخذ القرآن مهجوراً!!

إن دستور لدولة الإسلامية هذا قوى كل عصيان أو مخالفة.. هذا هو مكبه الذي يوأه الله إياه.. حتى الرسول الذي أنزل عليه لا يملك مخالفته أو تغييره.

وبحق نعلم أن وجود حكومة ما يعنى أن هناك قانوناً يطاع ويسود، فوجود حكومة إسلامية يعنى أول ما يعنى إجلال دسورها والحضوع لقوانينها.

ولقد جاء الإسلام بدستوره الإلهي "القرآن" ثم وسع الفقه الإسلامي كما ذكرنا من قبل دائره التقنين والشرع بحيث فصل وقنين كل علاقة لفرد بنفسه، وبأمرته، وبحيرائه، وبمجتمعه، وبحكومته، وبعلمه الفسيح كله.. وقبل هؤلاء جميعاً وطد علاقة الإنسان بربه. وإذا كان تحكيم الدستور وطاعته واجب الأمة، فهو أولاً وقبلأ واجب الحاكم.

فلنح كم المسلم الذي لا يحكم الدستور العراني، يصعب جدا الاعتراف له بأنه حاكم مسلم.

لقد ربط القرآن طاعة أولى الأمر بطاعة الله ورسوله فقال:

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾.

ولعبه لحكمه ما، لم يقل: وأطيعوا أولى الأمر منكم إذا اعتبر طاعتهم امتداداً لطاعة الله ورسوله مادام حكمهم امتداداً لشرعية الله ومبادئ رسوله.

من أجل هذا كانت أول كلمات المنفل "أوبكر الصديق" به المسلمين أثر مبايعته:

"أطعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم".

ومعنى هذا أن الحاكم المسلم الذي يعصى الله في حكمه، ويحدد قرآن ربه، يوقع في نفس الوقت وثقه عرله..
ومن أجل هذا رُسم "الفاروق عمر" بسهل اللحظات لأكبر من خلافته بسؤال وجهه إلى حشود المبايعين:
"ما تقولون إذا ملت برأسي هكذا؟؟".

فيحبه أحد الصحابة وقد انصى سيفه وشق به الهواء
"إذن تقول بالسيف هكذا!!"
فيتهس وجه "عمر" ويقول.

"الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يهوم أعوجاج عمر
بسيفه"!!

أرايتم..؟؟

إن الرجل الذي يتحدث بهذه الكلمات هو الذي سيورثه الله عم
قريب ملك كسرى وقيصر.

الرجل الذي كان أصحابه يرفعون أعلامه برفق الأهمه من طول
كظمة شفنيه خوفا من الله ويوقراً له، وفرقا من مسئولته أن يزل فيها أو
ينوء بها.

و لرجل الذي خلق ليقود عالما، والذي ررق طبيعة تقتلها الراحة

وبغريها العمل بالعمل^(١).

هذ هو الرجل الذى يتهلل وجهه، ويتلألا الحبور على جيبه
عندما يرى سيفاً بلوح به صاحبه وهو يقول لأمبر المؤمنين:
"إذن تقول بالسيف هكذا"!!!

* * *

ولماذا نعرض عن القرآن؟؟

لماذا نتهيب الحكم به والتسليم له؟؟

"نستطيع أن نحكم أنفسنا بحير منه؟؟ أيسطع عافرة الشريعة أن
يتعوقوا عليه، ويأتوا بأفضل منه؟؟

هذا الذى نقل إلينا كلمات الله عنه فقال:

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ﴾

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

﴿ رَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾

﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَفَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾

إنه دستور لا يزاحم ولا ينافس ولا يصاهى به سواه وليس أمام
الدولة المسلمة أى حبار فى أن يأخذ بعضه ونذر بعضه، وإن فعلت
صمها تأنيب لله وهو يقول:

﴿ أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتُكْفُرُونَ بِبَعْضٍ لَمَّا جَاءَ مِنْ يَفْعَلُ

(١) راجع كتابنا "بين يدي عمر" طبعة دار المعارف.

ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا جِزَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ
الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

كل ما تحتاجه الحياة ويحتاجه الناس من توجيهات ونظم وقوانين
وآداب موجود في إسلامنا . موجود في قرآننا العظيم.. وليس ثمة ما
يدعو إلى محر القرآن، ولا إلى هجر الإسلام اللذين ارضاهم الله لن
كتابنا وديننا.



٩

ولكن ما منهج الدولة المسلمة في العلاقات الدولية ؟
وهل هي دولة حرب أم دولة سلام ؟
أما منهجها في العلاقات الدولية فتوضحه آية من آيات دستورها
"القرآن" تلك التي تقول:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾
﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ قَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ
دِيَارِكُمْ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

فالدولة المسلمة مأمورة من ربه، ومدعوة من دستورها إلى أن تقسم
نعم يشا سلب بينها وبين كل دولة لا تقدم إليها الأذى ولا تحوطها
بالمؤامرات.

ووفق الآية السالفة، فإن كل من يقابلنا في دينا، ولم يهرجب -
نحن المسلمين - من أرضنا، ولم يظاهر عمره على إخراجنا منه مودنا
المخالصة وتعاوننا الوثيق.

وبالعكس، فإن كل من بقاثلنا في ديننا ويخرجنا من أرضنا، أو يظهر الذين يخرجوننا، فليس له إلى مودتنا ولا إلى صداقتنا سبيل. هذا هو موقف الدولة المسلمة من العالم الذي حولها توضحه الآية الكريمة في إيجاز مبين.

والهيئات الدولية التي تقوم والمواثيق الدولية التي تأخذ الدولة المسلمة مكانها بسببها وتحمل تبعاتها منها، فلا نهدم بيانا ولا تحنت بعهد وميثاق، ذلك أن دستورنا يأمرها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

ولقد أنشأ الرسول ﷺ معاهدات كثيرة تميزت بشدائنها السلام وتوكيدها على المشاركة العادلة في خدمة المتعاقدين ولم يحدث أبدا أن نكث الرسول بعهد أعطاه أو موثق أمضاه. ويصلنا الحديث بالسؤال الذي طرحناه آنفا:

هل الإسلام دين حرب أم دين سلام؟

وعندى أن الحواب الصحيح هو أن الإسلام دين عدل. فعندما تكون الحرب عدلا وتحصفا للعدل فهو دين حرب. وعندما يكون السلام هو العدل فهو دين سلام.

لا يجتن عن بصرة الحق، ولا يهرب من تبعات السلام والمهم هو سلوك الآخرين.. ماذا يريدون للإسلام. الحرب أم المسالمة..؟

لقد قال الله لبسه، وهو في نفس الوقت أمر للدولة المسلمة:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَبِهْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وأمره وأمر الدولة حيث تكون بأن تقف موقف الحذر من الدين:

﴿إِنْ يَشَقُّوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً، وَيَسْتَظُّوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾

وبحسب إمتداد تتبع آيات القتال في القرآن - دستور الدولة المسلمة -
نجد أن أول آية نزلت أمرة بالقتال والجهاد كانت هذه الآية:

﴿أَدْنِ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ
الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾

وكم هو رائع هذا التعبير "أدنى للذين يقاتلون بأنهم ظلموا" - نصم
الظاهر.

إن أول آية نزلت في القرآن تبيح القتال وبأذن للمسلمين بمجاهدة
عدوهم، تمنحنا الفهم بأن المسلمين كانوا مموعين من حمل السيف
ضد عدوهم لعله يرندع وسد ذكر ويحشى ويثوب إلى رشده بما يلقيه به
من حلم ومصابرة، فلما فشا نعيه واشتدت على المسلمين وطأته، أدنى
للذين يقاتلون بأنهم ظلموا..

فيها قوم مظلومون مضطهدون، ورغم قدرتهم على القتال فهم
مدفوعون عنه ومموعون منه حتى جاءهم الإذن من الله الذي هو على
نصرهم قدير.

وهذه الآية نسي طسعة الحرب في الإسلام ووظفها، فهي حرب
دفع، لا حرب غزو واستعمار وفهر وسلط
وكذلك الآيات التي أربك خلال تطور المحاربة العسكرية بين
الإسلام والشرك، بين المسلمين وأعدائهم تلتزم نفس العاية. الدفاع عن

النفس.. والدفاع عن حق الإنسان في اختيار عبده وإيمانه وبيع حبه، وحفه في دعوة الآخرين من بني البشر إلى ما يرى فيه صلاح أمرهم.

فلا يات تقول:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، وَلَا تَعْسُدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

ونقول:

﴿ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وتقول:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أُهْلُهَا، وَاجْعَلْ لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا، وَاجْعَلْ لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾

كل هذه الآيات نزلت تدعو المسلمين إلى الدفاع عن أنفسهم، وإلى قتال من يقاتلهم، فلما أحشد أهل مكة مع قبائل العرب واليهود مصممين على التخلص بالحرب من الإسلام ورسوله نزلت الآية الكريمة:

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾.

ونزلت الآية الكريمة:

﴿ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى مَوَازٍ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُجِبُ الْخَائِبِ ﴿

لقد بى الله المسلمين بنوايا المشركين واليهود تحاهمهم فقال:

﴿وَلَا يَرَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيَارِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا
وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَاكِرٌ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾

أمام هذا الجموح العنيد من أعداء الإسلام، وأمام إصرارهم على
إفناء المسلمين لا بحل الإسلام من أن يكون دين حرب وقتال، بل
عندئذ يعد الجهاد في سبيل الله فرضاً على المسلمين ويدعوهم أن
يهبوا حاملين الراية منتصين السيوف طامحين إلى إحدى الحسين
النصر، أو الشهادة..

وهو - أعنى الإسلام - لا يترك عندئذ فرصة لحمل المسلمين
معاتلين مستبسلين إلا أعنمها ودق طول الحرب عندهم.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ
عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خُزِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾

﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ فَبِمَا تَنْقُضُوهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدْنَاهُمْ مِنْ حِلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾
 ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَا عَلَيْهِ حَسَافَةٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾

﴿ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ نِيَّةً مَرْصُوصَةً ﴾

﴿ فَبِأَذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾

أجل - لا يسوء الإسلام ولا يتقص من قدره أن يكون دين حرب
 وقال إذا جوبه بعداوة حاكمة وهجوم مسلح من أعدائه وأعداء هويه.
 لن يدع الإسلام أهله يقفون مكتوفي الأيدي وهم يدسحون، ولن
 يأمرهم أن يديروا خدعهم الأيسر لمس يلطم خدعهم الأيمن، لأن هذه
 مثلية لم ترق إليها بعد طبيعة الإنسان.

بين من قاتلك فقاتله.. ومن قتلَكَ فاقْتله.

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾

﴿ قَاتِلُوهُمْ، يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيُصْرِكُهُمْ عَلَيْهِمْ
 وَيَشْفِئِ صُغُرَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾

* * *

إن حين تتبع غزوات الرسول لا نَحْدَهُ قد خرج في واحدة منها
بأدنى قتال.

- كانت غزوة " بدر " دفعا للمشركين الذين جاءوا يفحمون
على المسلمين حيائهم الجديدة في المدينة.
- وغزوة " أحد " كانت دفعا للهجوم الكاسح الذي شنه
المشركون الذين جاءوا في ثلاثة آلاف مقاتل، يسما حرج
الرسول بألف رجل رجع ثلثهم من منتصف الطريق بتحريض رعيم
المناققين عبد الله بن أبي بن سلول.
- ويحيى قوم إلى الرسول يرجونه أن يرسل معهم وفدا من
أصحابه يعلمون قومهم القرآن والإسلام، وفي الطريق غدروا بهم
وقتلوهم فكانت غزوة " بنى لحيان ".
- لقد قتل المحرمون نورا من حمار أصحاب الرسول، ولما
علموا بخروج الرسول إليهم هربوا وتمنعوا في دعوى الحبال
وعنى الرغم من أنه لم يدر قتال، فقد تعلم خصوم الإسلام أن دم
المسلم - أي مسلم - غال وعزيز.
- ويحاول اليهود من بنى النضير اغتيال الرسول عليه السلام،
فيخرج إليهم ويحاصروهم. حتى إذا توسلوا إليه أن يتركهم
يفدروا المدينة إلى خير سمح لهم بذلك مع علمه بعماد أنهم
في خير " سيعرضون عليه قرشا والقائل.
- وقد حدث هذا فعلا، فقد ذهب يهود بنى النضير هؤلاء
يحرضون على الرسول قرشا وسائر العرب، وبحربون صده
الأحزاب حتى فوجئ المسلمون ذات يوم بعشرة آلاف مقاتل

بهاجمون المدينة - وكانت هذه غزوة "الخدق" التي رد الله
المشركين واليهود بغيظهم مدحورين.

• وفي غزوة الخدق هذه قام جماعة أخرى من اليهود، هم بني قريظة بحياته بشعة مولى ظهورهم لما كان بينهم وبين الرسول
من عهد، وكادت خيانتهم هذه يودي بالإسلام وبالمسلمين فكان
لا بد من نأدسهم، وهكذا كانت غزوة "بني قريظة"

• ولا يكاد الرسول والمسلمون يستربحون حتى تأتيهم الأساء
بأن بني المصطلق قد خرجوا لحربهم تحت قيادة الحارث بن أبي
صرار، فكان لابد من ملاقاتهم وهكذا كانت غزوة بني
المصطلق "التي هزم فيها الجيش المعتدى هزيمة ساحقة.

• ولا يكف اليهود عن التامر ضد الرسول والإسلام، ولا
يفقون عن الدس والإرجاف، وغرهم مصبرة الرسول لهم، بل
ومحافظه على كل حقوقهم واحترام شعائرهم فحشدوا جموعهم
للإغارة على المدينة، وترغم هذه المحاولة يهود حير، فاضطر
الرسول للخروج إليهم وإسكات صوتهم إلى الأبد..

• ونوجس الروم من الإسلام حمّة، وصاروا يرون فيه خطرا
يهددهم لاسيما في بلاد الشام التي يستعمرونها والتي تتحم بلاد
هذه لدين الجديد، وهكذا راحوا ينحدون من الشام مركز شعب
ووثوب وتجراً حلفاؤهم الغساسنة على قتل الرسول الذي بعثه النبي
ﷺ إليهم بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام، وازداد تحرش الروم
ونمرهم وراحوا يحشدون جيشهم على الحدود فلم يكن بد من أن
يخرج المسلمون إليهم وكانت هذه غزوة "مؤتة".

- وينقض أهل مكة معاهدة الحديبية المرمية بس الرسول وبينهم رعم ما أعطاهم الرسول فيها من تارلات كادت تعصف بإيمان بعض المسلمين. ومع هذا ففي السنة الثامنة للهجرة نفصت فريش عهدها، وأعارت على حلماء الرسول الذين استصروا به فم يكن بد من نصرتهم وهكذا كان فتح مكة العظيم..!!
 - ولا يكاد لرسول نهياً للراحة قليلاً حتى يهاجأ بعد حمسه عشر يوماً من فتح مكة بفدوم هوارن وثقف في جيش لحب يريدون قتال الرسول والمسلمين، فكان لابد أن يخرج لهم، وكذا كانت عزوة "حسن" ثم حصار الطائف.
 - ثم لا يمر إلا زمن وجيز حتى يهاجأ الرسول بحشود هائلة من الروم تتجمع على حدود فلسطين لقتال المسلمين، فكان لابد أن يخرج الرسول إليهم على رأس جيش عظم - وهكذا كانت عزوة "سوك" التي هي آخر غزواته عبه الصلاة والسلام والتي انتهت دون قتال.
- فأين في ذلك كنه روح العدوان؟؟ أين حب المعامرة الشريرة والقتال الباغى..!!
- إلا أن لإسلام دين القتال ما كان القتال عدلاً.. ودين السلام ما كان السلام عدلاً.
- والدولة المسممة مأمورة بالانزام هذا النهج دون إفراط ودون تفريط



١٠

ودولة الإسلام حصن حصين للأقليات التي تعيش معها وليس
مواطنيها، لاسيما حين تكون هذه الأقليات أهل كتاب أو أهل ذمة كما
يسمىهم الإسلام.

إن الدولة الإسلامية مأمورة من الله ومن رسوله برعاية حرمانهم
وحفظ حقوقهم، وتركهم أحرارا في العيش وفق معتقداتهم.
يقول عليه الصلاة والسلام:

"من قتل معاهدا، حرم الله عليه الجنة".

ويقول عليه السلام:

"من ظلم معاهدا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ
منه شيئا بغير طلب نفسه، فأنا حبيبته يوم القيامة".

وعن العرياض بن سارية السلمي رضي الله عنه يقول:

"نزلنا مع رسول الله ﷺ فدعاه خبير ومعه من معه من
المسلمين. وكان صاحب خبير رجلا ماردا متكبرا، فأفص
إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أبحل لكم أن ندبحوا حمرا،
وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟"

"فعضب رسول الله ﷺ وقال يا ابن عوف، اركب فرسك ثم
 زد، إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة،
 واجتمعوا ثم صلى بهم عليه السلام ثم قام فقال، أيا حسب
 أحدكم منكنا عني أرىكنه يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً
 إلا ما في القرآن..؟!"

"ألا وإني والله قد وعظت وأمرت وبهيت عن أشياء إني
 لمثل القرآن."

"وإن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب
 إلا يآذن ولم يحل لكم ضرب سائهم، ولا أكل ثمارهم إذا
 أعطوا الذي عليهم!!"

فالإسلام يحفظ حقوق المواطنين جميعاً مسلمين كانوا، أو
 يهوداً أو نصارى وإذا كان يفرض على اليهود والنصارى
 "الحزبه"، فكما يفرض على المسلمين "الركاة" كسأهم
 ضريبة تؤدي لئيب المال، بل إن المسلم يدفع الزكاة
 ويحارب ويحمل كل مشاق القتال، أما الدمي يهودياً كن
 أو نصرانيا فإنه لا يحارب ولا يخرج لقتال..!!

وحين تطالع على سبيل المثال بعض المعاهدات التي
 حررها رسول الله عليه السلام وخلصاؤه من بعده لأهل
 الكتاب فرى عجباً..

فاليهود يقول الرسول في عهده لهم ومعهم:
 "إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم،

وللمسلمين دينهم - مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته"^(١).

ثم بعدد الرسول نفيه اليهود الذين لهم مثل مالي عوف من عهد وفي عهده نصارى نجران يقول عليه السلام.

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمان من الله ورسوله للذين أوتوا الكتاب من النصارى - من كان منهم على دين نجران، أو على شيء من نحل النصرانية كتبه لهم محمد بن عبد الله رسول الله إلى الناس كافة دمة لهم من الله ورسوله وعهد إلى المسلمين من بعده. عليهم أن يعوه ويعرفوه ويؤموا به ويحفظوه لهم "ليس لأحد من الولاة، ولا لدى شيعة من السلطان وغيره نقضه".

ثم يفصل حقوق النصارى في كتاب آخر وعهد آخر وفيه يقول .. للسيد الحارث بن كعب، ولأهل ملته، ولجميع من يستحسن دعوته النصرانية في شرق الأرض وغربها . أعطيتهم عهد الله وميثاقه أن أحفظ أقاليمهم، وأحمي جانيهم، وأدب عنهم وعن كنسهم وبيعهم وبيوت صناعاتهم وأن أدخلهم في دمنى وأمنى، ولا يهدم بيت من بيوت بيعهم، ولا يدخل شيء من بيتهم في شيء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين فمن فعل ذلك فقد نكث عهد الله وحالف رسوله".

(١) كتاب الوثائق السياسية للمعهد السوي والحلقة الراشدة وجمعها . الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي.

والمشق وطوبى قلبه راجعه من يشاء في مصدره^(١) وهو مشاق يزحر بأبيل ما في الإنسانية من عاطفه، وأعظم ما في الحياة من وفاء ورحمة وصدق ونبل.

وعنده يوقع "أبو بكر" جدد العهد لنصارى نجران مرة أخرى:
 "هذا ما كتب به عبد الله أبو بكر حليفه محمد رسول الله ﷺ
 لأهل نجران.

"أجارهم بحوار الله، ودمه رسوله على أنفسهم، وأرضهم، وملسهم، وأموالهم، وحاشيتهم، وعاداتهم، وغنائمهم، وشهدهم، وأساقفتهم، ورهبانهم، وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير..
 وكذلك فعل "عمر" في العهد الذي أعطاه لنصارى المدائن وفارس.
 "أما بعد فإني أعطيتكم عهد الله وميثقه، على أنفسكم وأموالكم وعيالكم ورجالكم وأعطيكم أمانى من كل أدى، وألزمت نفسي أن أكون من ورائكم دأبا عنكم كل عدو يريدنى سوء وإياكم. وأن أعزل عنكم كل أدى.. ولا يغبر أسقف من أساقفتكم، ولا رئيس من رؤسائكم ولا يهدم بيت من بيوت صلواتكم، ولا يدخل شيء من سائكم إلى بيوت المساجد ولا إلى مآثر المسلمين، ولا تكلفوا الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملافاة الحرب، ولا يحبس أحد من النصارى على الإسلام عملا بما أمر الله في كتابه ..

(١) مجموعة ابوت في السياسة لعهد النوى والحلافة الراشدة.

﴿ لا إكراه في الدين قد ثبث في الرشد من الغي ﴾.

ولى شرط عليهم: ألا يكون أحد منهم عبدا لأهل لحرب
على أحد من المسلمين في سر ولا علانية، ولا يؤوا في
منارلهم عدوا للمسلمين، ولا يدلوا أحداً من الأعداء ولا
يكاتبوه. إلخ.

في أى دنيا غير ذب الإسلام تحدد هذا السامح المريد ؟
وأين هذا مما صنعت أسبانيا المسيحية بالأمن مع مسلمي
لأندلس الذين ورثوا الأسبان حضارهم ومدنهم...؟
وأين هذا مما تصعه قوى التشير المسيحية العالمية اليوم من كيد
لإسلام وللمسلمين!؟

ولنقرأ الأمان الذي أعطاه أمر المؤمنين لأهل ايب، وهذا نصه
كما يرويه الطبرى:

"هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمر المؤمنين
أهل إلبا من الأمان. أعطاهم أمان لأنفسهم وأموالهم،
ولكنائسهم وصلبانهم. ألا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا
تنتقص منها شىء ولا من صلبهم ولا من أموالهم، ولا
يكرهون في دينهم، ولا يضار منهم أحد".

ألا إن أعظم هبات الإسلام لهو السامح، وهو لا يصفى رواءه على
قريبى لعهد من الرسول وحسب بل وعلى كل من اعتنق الإسلام وفهمه
ووعاه مهما تباعدت به العصور.

وهذا هو الدكتور حس إبراهيم رحمه الله بحدثنا عن كرامر أن
"ريك حان" وهو أول من أدخل الإسلام إلى روم، وكان شديد

النحيم له وذائب الدعوة إليه، علمه الإسلام كيف يكون النسب مع
وعرس قصصه في فؤاده فسامع مع رعاياه من المسحوبين ومنحهم، لحربه
الثمة في إقامه شعائهم، وسمح لهم بالبشر بدسهم وبشره في بلاده
وحرر بهذا وثيقة تقول:

«... ر كيه بطرس مقدسه، ولا يحل لأحد أن يعرض ليه، أو
لأحد رجالها سوء، ولا أن يستولي على شيء من عذارها أو
مناعها، ولا أن يدخل في أمورها، ومن حالف أمرت هذا
بالنعدى عليها فهو مجرم أمام الله، وجراؤه من العمل»^(١)

ألا حيا الله الإسلام وحيا أهله ودويه في كل زمان ومكان.

إن هذه الوثيقة التي نطالعها الآن كتيب في القرن الرابع عشر
لميلادي وهي شبيهة بالعهد الذي قطعه على نفسه أمير المؤمنين في
لسواب الأولى من القرن الأول الهجري، !!
وعنى طول ما بين العهدين من قرون، فكأنهما عهد واحد، لأنهما
يسمان بماء واحد، وبهتان من روح واحد هو روح الإسلام العظيم
الذي قال دستوره الحالد:

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْقِيَمَةِ﴾



والإسلام بعد ذلك دين حصاره لا يعرف النخلف ولا الجمود، وإذا كانت الحضرة تبدأ بالمعرفة والعلم، فقد علم الإسلام أباؤه أن يركضوا إلى العلم ركضا، ويتزاحموا حوله بالماكب، ويقبلوا عليه إقبال العاشق المشغوف.

والعلم الذي يحض الإسلام أتاعه عليه هو علم الدين والآخرة، العلم الذي يركى النفس ويسمو بالروح ويعرف المسلم حق الله عليه. ثم العلم الذي يجعل الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق الحضرة في شتى مجالاتها وصنوفها النظيفه.

يقول القرآن الكريم:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ١.

ثم ينوج العلماء بتاج الكرامة حين يعتهم بأنهم من أكثر الناس معرفة بالله وخشية له:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾.

والله رب العالمين يدعو عباده إلى السعي نحو العلم ويعددهم بأن يمدهم من فضله بما لا يستطيعون الوصول إليه من علوم الدين وعلم

الاحرة إلا بما يهبهم من عطائه، ويمدهم من علمه..

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

وبعضهم القرآن الكريم على إفراغ الوسع في محاولة كشف
المجهول محيراً إياهم أن لكل لنا مسفراً، ولكل مجهول بها به بحوله
العلم بها إلى معلوم.

﴿لَكُلِّ نَبَأٌ مُّسْتَقَرٌّ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ويدعو أتباعه إلى الاستزادة من العلم دون توقف أو تردد:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

ويمن الله على عباده بأنه:

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وإذا كان المعلم هو الله فمعنى ذلك أنه لا نهاية لما سيصل إليه
الإنسان من علم ومعرفة، وهذا هو السر العظيم الذي يفف وراء المعرفة
الإنسانية التي لا تعرف المقصان أبداً ولا التوقف، وإنما هي من مزيد
إلى مزيد.

ذلك لأن الله هو المعلم ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ والمعلم

سبحانه لا حدود لقدرته ولا منتهى لعلمه، ولهذا نجده سبحانه يقدم إلب
واحداً من عباده الصالحين فاق غيره في العلم بالحياة فيقول:

﴿وَأَنَّهُ لَدُوْهُ عِلْمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وعظمة المسمم ماثلة في أن الله سبحانه دثره بالعلم الذي يعرف به

ويا نعم الذي بكشف له سعادته في حياته ودته

وإد. يعلم الله ضعف النفس البشرية واتحداعها بمظاهر الحياة

الباطلة وركونها إليها فقد دعا عباده المؤمنين أن يجعلوا لشعبهم
بالمعرفة كوايح و"فراش" حتى لا تسلك بهم مسالك الشر والندمير، وألا
بنفادوا في غمرة حماسهم وراء العلم الذي يزخرف الحياة ناسين العلم
الذي يصلهم بالله ويعرفهم به.

أجل - إن القرآن ليدعو المسلمين ألا يكونوا من الذين:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾

وهما يبين العارق الكبير بين الحضارة التي تشاد على قواعد من
علم مغرور ملحد، والحضارة التي تشاد على علم ورع حاشع لله رب
العالمين.

إن الأولى تتحول إلى ولاء يقتك بالشريعة ويضع مصيرها على
الهوة الفاعرة.. بينما الثانية ترتقى بالإنسان روحاً ومادة إلى آفاق مأمومة.
ويقودنا الرسول عليه الصلاة والسلام في طريق المعرفة والعلم
قوداً حكيماً ودعواً. ويعلمنا فيقول:

"من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله به طريقاً إلى
الجنة".

والعلم النافع المضىء الذي يهدي القلوب إلى الله، ويهدي
العقول إلى الصواب، ويحقق للحياة الإنسانية السلام والأمن والتقدم
وعافية الحياة هو العلم.. وهو ليس ناقلة يتعلمه من يشاء بل هو كما
يقول الرسول:

"طلب العلم فريضة على كل مسلم".

ويجعل المعاناة في تحصيله جهاداً.

"من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع"

بل أكثر من ذلك يقول عليه السلام:

"من جاء أجله وهو يطلب العلم لفي الله ولم يكن به وبس

النبيين إلا درجة النبوة".

"إذا جاء الموت طالب العلم وهو يتعلم مات شهيداً"

لا حسد إلا في اثنتين:

- رجل آتاه مالا فسلطه علىهلكته في الحق
- ورجل آتاه الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها".

"إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا

درهماً ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أحد بحظ وافر"

"إن الملائكة لتصع أجسحتها لطالب العلم رضا بما

يصنع".

ويعود إلى سؤال ألمحنا إليه من قبل، هو أي علم يريد الرسول؟

إنه - أولاً - العلم الذي يفسر للناس أمور دينهم، ويدفع حياتهم في

طريق المضيئة والخير، ويوثق انصالحهم بالله

"تعمموا الفرائض والقرآن، وعلموا الناس، فإنني مقبوض".

"نصر الله امرأ سمع مقالتي فحفظها ووعاها، وسعها من لم

يسمعها".

فالعلم الذي يقدم للناس دين الله وسنة رسوله تأتي في الصدارة من

كل العلوم.

وبعدئذ يحىء العلم بكل أنواعه.. العلم الذي يشيد الحضارات،

وينفع الناس ويسمى عطاء الحياة.

والعلم الذي يهود حطى الحصاره في رشد، ويسهم في دفع التقدم
الإنساني وينفع به في توفير الراحة والحر للناس - المسلمون مدعوون
إليه.

وفي هذا المجال يقول الرسول عليه السلام:
"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث:

- صدقة جارية.

- أو علم ينتفع به..

- أو ولد صالح يدعو له.."

فقله عليه السلام [علم ينتفع به] يستظم علوم الحياة التي تنفع
الناس وتسر لهم وسائل العيش، وتزيد ثراهم العقلي و لروحي
وهو أيضا المعنى بقول الرسول:
"الحكمة ضالة المؤمن، فحث وجدها فهو أحق بها"

لقد وعى رسول الله قول الله له:

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

وقوله سبحانه:

﴿ وَمَا أَرْبِئُكُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فما هذا العلم الذي لا مسهى لأبعاده ولا حصر لعلمانه؟؟

إنه علم الدنيا والآخرة.. علم السك وعلم الحياة ، علم الكون
بكل ما يستطيع أن يصل إليه من كشوف وأسرار.. العلم الذي تنم به
عمارة الأرض، وازدهار الحياة ورفع الإنسان.
"اطلبوا العلم ولو في الصين".

ولا حدود من نخوم الأرض، ولا من نخوم العقيدة ترد المسبب
عن أخذ العلم النافع والحكمة، لصادقة والمعرفة المتساوقة.
فالجهد هو الخطيئة الكبرى التي يعيد الرسول منها أمته.
وكما يقول الأحنف:

كل عز لا يوجد بعلم، فإلى ذل مصيره."

ولقد وعى علماء الإسلام روح التوجه النبوي الكريم فعمقوا في
كل صوف العلم وتألفوا ثم علموا الدنيا، وشادوا الحضارات.
وهكذا سبغ العلم أرفع المازل في الأمة المسلمة والدولة المسلمة
وهكذا كان في كل عصور التاريخ الإسلامي يهود حطى الموكب
العظيم الذي ظل يحمل رابه الواحد والإيمان والفصيلة والحبر
والحصارة والتقدم قرونا تلو قرون.

وم نحسب العلم بلغ العاية في رشده وهديه ونفعه للناس، وإحيائه
للروح وللعقل وللضمير دون انحراف أو زيغ أو تخريب مثلما بلغ من
ذلك كله في ظل الأمة المسلمة. خير أمة أخرجت للناس!!

* * *

فالدولة المسلمة، وهذا مكانها من العلم، وهذه منزلة العلم فيها،
أولى لدول تبني قصصه الحصارة الإنسانية والعبرة عليها والإسهام في
بنائها وأخذ الحظ الوافر منها.

وعبر التاريخ يلمى بالحصارة الإسلامية وهي نوط العالم من سياته
ونعلم أوروبا وغير أوروبا أن تستجيب لدعوة المحدثين وأن يأخذ
مكانها - ولو في بحر الصفوف - بين موكبها الهادر الذي كانت نفوده
حصارة الإسلام وترعاه.

إن لحائب الظيف من حضارة أوروبا والعرب إنما ولد في حجر الحضارة الإسلامية وتعذى بلبانها.

ومن دمشق، وبغداد، والقاهرة، وعرباطة، وقرطبة وغيرها كانت أنوار الحضارة تشع مناديه إليها القاصدين والرواد من أوروبا وغيرها.

وكانت حضارة تقوم على المادة والروح دون أن تسلم أحدهما للآخرى، ومهما يكن من أمر الانفلات الأخلاقي الذي أصاب بدولة المسلمة في بعض مراحلها فإن الحائب الروحي بقي له نفوذه ودعاه والداعون إليه سرًا وجهارًا وليلاً ونهارًا

لقد اكتشف العقل الإسلامي في ظل دولته وبمعونتها روع الكشوف في جميع فروع المعرفة البشرية وفي نفس الوقت كان ثاب إيماناً وشموحه أمراً ملحوظاً ومثيراً.

كانت أسانده العالم في التجارة، وفي العلوم بنى أنواعها، وفي الكشوف والمخترعات، في الطب.. في الأدب.. في الفن.. في العمارة.. في الفقه.. في الكيمياء.. في الصناعة.. في الزراعة.

ويوم كان بحار المسلمين يطوفون العالم برًا وبحرًا بحارنهم، كانت أوروبا تقذف بقراصسها يعيشون في سلواحيها فساداً وبهاً وتخریباً.

إن أعظم المخترعات التي تبهرنا اليوم يرجع إلى آباء المسلمين العلماء فصل كشفها.

تقول "زجيريد هونكه"^(١).

"إنما نرى الآن مشدوهين منعجبين أمام تطور فن الصواريخ

^(١) كتاب "شمس العرب تشرق على الغرب".

العظيم دون أن سائل أنفسا إلى من يدين بهذا الاختراع^١
 ثم تثبت أنهم آباؤنا العرب المسلمون هم الذين يدين لهم العرب
 والشرق بهذا الاختراع إذ كانوا أول من وضع نظرية تركيب البرود
 المتدفع في القرن الثاني عشر.

وعلم الرياضيات والملك والصريات و الحساب والجبر
 والأرقام وعلم طبقات الجو - الأرصاد الجوية - وعلم الميكانيكا
 واختراع الأجهزة الدقيقة المذهلة التي لا يكاد العقل يصدق أنها
 اخترعت في ذلك العصر البعيد.

وفي ظل الدولة المسلمة قام الحواريون وابن الهيثم والبروني.
 وحسب ابن الهيثم أن نظرياته في علمي الفيزياء والصريات لا
 يزال حتى يومنا هذا تحكم العقل الأوروبي الذي يسير في ضوئها.
 وحسب البروني أنه سبق "كوبرنيكس" وغيره... سبقهم بحسمائة
 عام إلى اكتشاف أن الأرض تدور حول نفسها، ثم تدور مع الكواكب
 والحوم حول الشمس، وأن الشمس ليست السبب في حدوث الليل
 والنهار بل هي دورة الأرض ذاتها.

وكان عندما ابن سينا والفارابي وعمر الحيام. ومن عجب أن لا
 يعرف من عمر الحيام إلا جاسه اللاهي، بينما العرب وأوروبا يعرفان أنه
 الرجل الذي طور علم الجبر وأوصله إلى قمة عالية من الازدهار.
 "بل إن من الإنصاف والحق أن نقول: إن عمر الحيام قد وفق في
 الارتقاء بعلم الجبر إلى ذروة سامقة لم يعرف لها فيما بعد مثل إلا عسى
 يد الفيلسوف الفرنسي "ديكارت"^(١).

(١) المرجع السابق

وما "ابن رشد" الذي يقول عنه ج. بيورى فى كتابه "حرية الفكر".
 "إن أول موجة من النور أضاءت أوروبا كانت مؤلفات ابن رشد".
 وبينما كان الطب فى أوروبا واقعاً تحت أيدي الدجالين من رجال
 الكهوت حيث يعالجون بالشعوذة جميع أنواع الأمراض حتى الجراحة
 كانت الدولة المسلمة تزخر بالأطباء المتقدمين والبرع في شتى
 التخصصات.

تقول "زجرىد هونكه":

"أين هو البلد الذى عرف الطب بشموليته وعمقه وازدهاره
 كما كان الطب العربى؟ وأين هى الدولة التى عرفت مثل
 هذا الجمع الكبير من الإخصائين فى شتى حقول الصحة،
 وتركيب الأدوية والعقاقير كما كانت الحال عند هذا
 الشعب؟ وهل كان للمستشفيات الحديثة فى الأصقاع
 العربيه آنذاك مثل فى أى طرف من أطراف الأرض؟.. إن
 وسائل العلاج عندهم تتحدث ببلاغة عن عظمة أبحاثهم.
 كما أن علم الصحة عندهم أروع مثل يضرب.. ولم العجب
 والدهشة، والوضع كان كما نعلم.. أثم يطلب الفرنجة
 مساعدة العرب الطبية، ويلجأوا فى التماسها"^(١).

إننا حين نقرأ لكتاب أوروبا والعرب عن حصارنا فى الطب نجدهم
 يتحدثون عن مستشفيات كأعظم وأنظف ما وصلت إليه أوروبا، ليوم،
 كما يتحدثون عن أطباء لم ير العالم لهم مثيلاً، وإسهم ليتحدثون عن
 الطبيب المسلم أبى بكر محمد بن زكريا الرازى فيصفونه بأنه أحد

(١) المرجع السابق

أعظم أطباء الإنسانية إطلاقاً...!!

ويهيمنون هيأماً شديداً بالعالم المسلم "ابن النفيس" من علماء القرن الثالث عشر الميلادي - وهو أول عالم على ظهر الأرض نقد ببصره إلى أخطأ "جالينوس" وبقدما، ثم اكتشف نظرية الدورة الدموية.

وعندنا ابن مسكويه وابن الخطيب والطبيب الطبري الذين أبدعوا في مجال الصحة والطب.

وكم من مكتشفات هائلة اكتشفها علماء الإسلام والعرب، اسحبها وادعاه أوروبا وظهرهم على ادعاءاتهم كتب وعلماء أوروبا.!!
ولسنا نحن الذين نقرر هذه الحقيقة المؤسفة بل تقررهما المستشرقون الألمانية "زجريد هومكة" فتقول: ^(١).

"هذه المعارف المبتكرة العظيمة الشأن.. هذه التحقيقات العلمية الرائعة التي قدمتها العصور العربية الإسلامية هدية منها للإنسانية عامة، ولأوروبا خاصة، هل رددتها إلى مصدرها، وأرجعنا فصلها إلى صانعيها؟!"

"لقد كان الأمر على العكس تماماً، فإن أغلب الاكتشافات العربية [الإسلامية] حملت معها، ولا تزال تحمل حتى يومنا هذا، أسماء إنجليزية، أو فرنسية، أو ألمانية".

لقد ظلت مؤلفات آياتنا المسلمين تدرس في أوروبا مئات السنين ولم يكن في أوروبا كلها عالم واحد لم ينهل - في مجال تخصصه - من كتب آياتنا السالفين.

^(١) شمس العرب تنطق على الغرب

لقد كان بؤسا المسلمون سادة حضارة من أعظم وأروع حضارات العالم وليس ثمة ما يمنع، بل هناك ما يدفع لكى نستأنف مسيرنا الحضارية فى عالم يقصه معا نملك، الشيء الكثير.

فالدولة المسلمة دولة حضارة وتقدم، وهى مسئولة عن تقدم الحياة مثل مسئوليتها عن دين الله.

يقول مؤلف "الإسلام قوة الغد العالمية".

"إن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن، ولم تنجح الأحداث التى مرت بالمسلمين فى القرون الأخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية.

"إن الروح الإسلامية ما زالت تسيطر على تفكير القادة ومشاعرههم. وستظل هناك مدام ثمة شعوب إسلامية ربطت مصيرها بمصير الإسلام، واعتقدت أن الرباط الجامع ليس أجناسها هو الإسلام.

"إن روح التعاطف والتوادد بين المسلمين هو السبب الرئيسى فى تجميع القوى الوطنية على طريق "القومية الإسلامية". وإنه من الممكن للمسلمين أن ينقدموا فى العلم والتكنولوجيا كما تقدم الأوروبيون وهم يومئذ لن يكونوا بحاجة إلى رباط يجمع شملهم سوى الإسلام وهو قائم فعلا ولم يفقدوه بعد".

إن عظمة الإسلام الفريدة ماثلة فى أنه يسر بالتقدم المادى والتقدم الروحى فى طريق واحدة. وهذا يجعل مستقبله مستقبلا للبشرية كلها.. ذلك أن الحضارة العربية المعاصرة تعاني هذه الآفة القاتلة، وهى أن

التقدم المادى يعصى هادراً وسريعاً بسما تقدمها الروحي متحلف جداً وبطىء كذلك.

ويوم بكنشف الوعي الإنسانى حاجته إلى المواءمة بين تقدمه المادى والروحي سيجد الإسلام فى انتظاره يمنحه حضارة المدة وحضارة الروح، ويهديه سواء السبيل.

وهذه حقيقة يجب على المسلمين أن يستعدوا لتقبلها وحمل تبعاتها.

والدولة المسلمة فى عصرنا هذا مطالبة بأن تصادق أكثر وأكثر حركة العلم.

وبنحن نعنى بحركة العلم ذلك التطور الخلاق الذى يقطع الحياء وثباً محلقاً وراءه العمى الذين لا يبصرون، والصمم الذين لا سمعون و لمفعدى الدين لا يواكون ركبته ولا يتابعون خطاه.

ولا يعنى مسابقة حركة العلم والحصاره أن نعد شخصينا الإسلامنة وتقاليدنا، ونذهب نفلد الغرب فى شكناب الحياء المحلة ومظاهرها الماچه والرحضة بل يعنى أن نحيا فى مسوى نعاليمنا وديننا وتقاليدنا حياه متحركة ومحددة وملتمية مع روح العصر وإنجازاته الجادة.

عنى الدولة المسلمة اليوم - كل دولة أن تسليح بأسلحة، لعصر لا عسكرى فحسب، بل فى كل مجالات الحياء..

عسها أن تقوم بنصنيع مواردها وبلادها، وأن تأخذ بحظ وافر من أحدث ما وصل إليه العلم والتكنولوجيا أولاً بأول، وأن تتيح لشبابها فرصة التروء الكامل بالمعرفة والعلوم، ونحن فى هذا لى يكون مفليدس

لعيرنا، بل سنكون قد أستاذنا حضارتنا التي عذب العالم من قبل
وعدمته لعة الحياة.

عينا نحن المسلمين أن نعيد من كل فرض التمدد الطيف دون أن
سلم رقبتنا للأعلاء، وديننا للصاع، وروحنا للحفاف.

عينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لا يزال
قائماً وأن لإسلام الذي يحمل لواءه لم يه ولن يه دور في برشد
الحياة وهداية البشر، كما لن يه حاجة البشرية له

وعلياً أن نعلم إيماننا بأن الإسلام:

دين، ودولة.

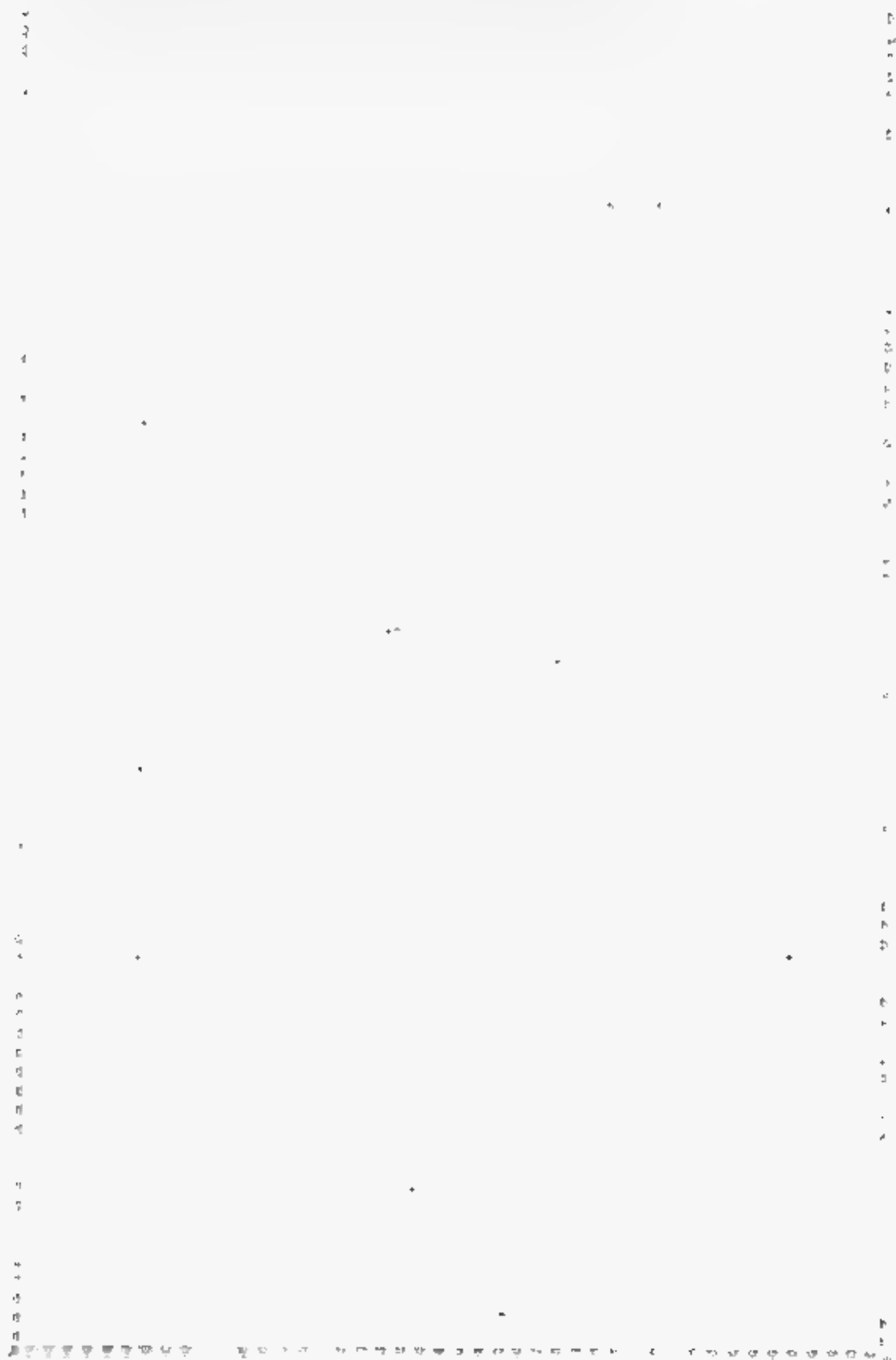
حق، وقوة.

ثقافة، وحضارة.

عبادة، وسياسة.



ملق



بعد لفراغ من هذا البحث بطيب لى ن أضرب مثلاً، وأقدم
 نموذجاً للدولة المسلمة وللحاكم المسلم
 ولن أحنار هذا النموذج من بين الحكماء الراشدين، فقد يقال: بل
 أمه قد حلت.. وذلك طراز شهد الوحي ورياه الرسول. سأختار النموذج
 من لعصر الأموى، ذلك العصر الذى شهد انحرافات بالغة، والذى نبأ
 له الرسول بأنه سيكون نهاية عصر الخلافة الراشدة وبداءه عصر الملك
 العصوص.

سأختار "عمر بن عبد العزيز" ..!!

الرجل الذى حاول بكل عصر الوحي بمثله وفصائله إلى دنيا هائجة
 مائعة، مقبوة مضطربة، متلعة بالظلم والقهر، متعفنة بالحلل والترف،
 ثم نجح فى محاولته نجاحاً منقطع النظر...!!
 لقد جعل من الملك العصوص الذى شاده الأمويون عرس سنين عاف
 - فى مجته - خلافة أواه، باره، عادلة، تمثل كل فصائل وسمات عصر
 النبوة والوحي.

ومنى؟

ليس فى عشرين عاماً ولا عشرة أعوام.. بل فى عامين، وخمسة

أشهر، وبضعة أيام...!!!

وهذا النموذج يرينا "روح" الدولة المسلمة و"صميمها" كما يرينا شكلها الذي كان مثاليا بالنسبة لعصرها.

يبد أنه لا يرب الشكل "النهائي" للدولة المسلمة.. ففي عصرنا هذا لا بد للشكل أن يختلف بقيام المؤسسات الدستورية، والمجالس البلدية التي تضط دور الحاكم، كمنفذ لأحكام الله، ووكيل عن الأمة ولا بد من صحافة حرة، ومعارضة حقيقية وفعالة، يخشاها الحاكم ولا تخشاه، ويتلمس عندها الصواب والصدق وسواء السبيل.

إن النموذج الذي يقدمه لنا "عمر بن عبد العزيز" يرينا في أية آفاق رفيعة شامخة تخلق الدولة ويخلق الحاكم حين يكون الإسلام الحق هو المنهج، وهو القدوة، والإمام...!!

ولر أقدم هذا النموذج في كتابة جديدة. بل سأستعير فصلا من كتابي "معركة الإسلام: عمر بن عبد العزيز" ذلك الفصل الذي كان الكتاب قد تضمنه تحت عنوان "المنهج".

راجياً أن يكون تنمة مساركة لحديثي هذا عن - الدولة في الإسلام

* * *

المنهج

كتب إليه واليه على خراسان يسأده في أن يرخص له باستخدم
بعض القوة والعنف مع أهلها ، فائلاً في رسالته للحليفة : "إنهم لا
يصلحهم إلا السيف والسوط" ..
فكان رده الثقي الحازم :
"كذبت .."

بل يصلحهم العدل والحق ، فأبسط ذلك فهم ، واعلم أن
الله لا يصلح عمل المفسدين " .. !!

* * *

العدل ، والحق .. !!

بهما وعليهما سيفوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما
اللاجب المستقيم متمصي خطاه .. آخذاً معه على داك الطريق جميع
الس - أمر ، هم ، وعامتهم .. أغبياءهم ، وفقراءهم .. أقويهم ،
وضعفاءهم ..

والحليفة ، الذي يراه دائم البكاء ، بل الحبيب ، كلم ذكر الله
واليوم الآخر .. والذي ينتفض تحت وقع ثفاه انتعاصمة العصفور ، حتى
لحسبه لا يصلح لغير الصومعة يتحش فيها ويتعبد .. !!

هذا الخليفة ، سيهربا الآن ونحن بطالع مسهحه وأسلوبه في الحكم،
حيث تُطْلُ علينا من وراء دموعه المُثالة روح غالبية تناضل في جهاد
مستبسر لبسوع أسمى آذق العدالة والحق . وحيث تُطْلُ علنا كذلك
بصيره نافذة لا يُفْلِت من ضيائها شيء ، وإرادة حارمة لا يَهْوُلُها صعب ،
ولا يُجْفِلُها خطر ...

وفحاة سرى العيس السابحتين في دموعهما دوماً ، تُحْدَقَان كعبي
الصفير .. وُرسِلان هريقاً أخذاً يُقنع كل من يلقاه أنه أمام عيس ثافنين
ليس إلى خداعهما سبيل .. !!

* * *

إن المصاعب المتطاولة ، والأخطار المحدقة ، والمؤامرات
المتساوقة ، لن تزيد الإرادة الرافعة لواء العدل والحق إلا تقدماً
ومضاً .

فلُعن العواقب لنفسها ، أما هو فلي يبالي بما كن ولا يف سكون
منها .. بل سيضع يمينه في يمين الحق ، ويمضي معه إلى حيث يذمدمان
معاً على مظالم وظلمات الأعوام الستين التي سبقت في الحكم الأموي.
وإلى حيث يجعلان ظلماتها نوراً ..

وهجرها فردوساً .. وترفها قناعة .. وانحللها ورعاً . واستعلاء
تواضعاً .. وقهرها رحمة . ورُعْتها أمناً ..

ويمن يدي عزمه الرباني القدير ، راحت كلمانه نقرع أسمع
العطربة ، والتحدي :

"والله ، لو لم يهض الحق ونُدْحَض الباطل إلا بتطبيع
أوصالي وأعضائي ، لأمُصِبُ ذلك وأنا سعيد " !!

"ووالله ، لو لُيْتُتُ فيكم خمسين عاماً ، ما أقمتُ إلا ما أريد من العدل " .. !!

فلنتابع منهجه لنرى .

ولكن علينا ألا نَدْعَ التفاصيل الكثيرة تشغلبنا بـبهرها عن الأسس والقواعد .

وعلىنا أن نقتصد في ذكر الوقائع والمشاهد التي تحكي خصائص المنهج وسمايته ، حتى بقاء علينا هذا التركيز في الرؤية تركيزاً مُماتلاً في نشوة العقل وغبطة الروح .

أي إننا سنكتفي من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره السي بدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل .

وتتلخص هذه المحاور في :

- * نظرتة إلى دور الدولة ووظيفتها ..
- * نظرتة إلى دور الشورى ووظيفتها .
- * نظرتة إلى دور المال ووظيفته .
- * موقفه من وحدة الأمة وسلامتها .
- * أسلوبه في العمل .

* * *

فأولاً، الدولة قدوة ..

إن الحكام الدين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة لا يأتون أمراً مدكوراً ، فتلك سُنَّة مألوفة معتادة : أن تحمي القوة القانون . أما الحكام الدين يحمون القانون ويفقدونه بالقُدوة ، فأولئك الدين

يجاورون المألوف المعتاد إلى الخوارق والمعجرات
ولقد كان "ابن عبد العزيز" واحداً من هؤلاء .
لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها ،
إذ تركت مواقع عملها واستسلمت للعواية والهوى .
والدولة عنده تتمثل في كل الأجهزة العاملة ، لكن يأتي في المقدمة
دوماً :

[١] الخليفة بوصفه رئيس الدولة .

[٢] الولاة بوصفهم حكام الأقاليم .

[٣] القضاة .

[٤] أمناء بيوت المال .

والخليفة - أي خليفة - وإن وضعته وظيفته ومسئوليته على رأس
الدولة ، فإنه يظل عازباً عن أداء دوره ما لم يقف معه في مستواه - أو
قريباً من مستواه - وولاته وقضاؤه وأمنائه على الأموال العامة .

ها هو ذا "عمر" يقول :

"إن للسلطان أركاناً لا يُثبت إلا بها .

"فالوالي ، ركن .

"والقاضي ، ركن .

"وصاحب بيت المال ، ركن .

"والركن الرابع ، أنا " .. !!

وإذن ، فلكي تكون الدولة قدوة في حمل دين الله وحقوق الناس ،

لابد من أن تتشكل هذه المذرة من سلوك هؤلاء الأربعة محتملين :

الخليفة ، وولاته ، وقضاؤه ، وخزنته ..

ولكي تكون الدولة قدوة ، لابد أن يكون بمسئولياتها جميعاً ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين ، طليعة العمل ورأئده وهكذا راح "عمر" يصنع الدولة كلها - وهو على رأسها - في مكان القدوة ، حاملةً وحاملةً معها كل ما تلقىه القدوة من مسئوليات ، وبإدلاء كل ما تتطلبه من تصحيات .

وقبل أن يأمر ولاته وقضاة ، وخزنته ، بدأ بنفسه .

لقد تلوّنا من قبل ، كلمته العظيمة :

"لست إلا كأحدكم ..

غير أنني أثقلكم حملاً" !!

وهنا ، نرى طريقته في وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ،

الحازم ، الثريد ..

لقد كان دخله السوي حتى اليوم الذي وُلّي فيه الخلافة أربعين

ألف دينار .. هي حصيلة من مُحصّات كأمير أموي .. ومن الأرض التي

كان يملكها .. ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه عبد العزيز بن مروان

والآن ، تفتح بصيرته على الحقيقة العميقة ، فيرى أن هذا الشراء

لما حشر الذي يملكه أمراء بني مروان - وهو معهم - لم يبعوه بعرق

النفس .. وما هذه الثروة الممركزة في أيدي حفصات من ، لأمراء والسادة ،

إلا حقوق الملائين وأقواتها سُلبت منها بغير حق ، وبغير سلطان .. !!

ومن قوره ، اتخذ قراره الحاسم بإلغاء كافة محصّات الأمراء كافه ،

ومُحصّات حرميهم وخدمهم ، وقراره ينزع الإطاعات الزراعية منهم

جميعاً ، وردّها إلى بيت المال ..

وبدأ بنفسه ، فتحلّى عن جمع أملاكه وأمواله !! حتى أرض "فدك"

في "خَيْر" وكانت حرم مملكانه وأثمبها ، ولم يكن أحد أقطع إياها ، بل ورثها عن أبيه .

ولكنه سأل نفسه : ومن أين جاء بها أبوه . ؟

لقد أفاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم "حبر" ، فخصصها لأبناء السبيل ، وظلت كذلك حتى ملك الأمر معاوية ، فوهبها لمروان . ومن مروان ، وصلت إلى ابنه "عبد العزيز" والد "عمر" تقول : حتى هذه الأرض ، تحلى عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمها لملكية الدولة ، وأن يصرف ربعها ونساجها ، حيث كان يصرف على عهد الرسول ﷺ وخلفائه .

ليس ذلك فحسب . بل لقد تنازل عن كل درهم في راتبه المحصص له كأمير للمؤمنين . أ

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بمطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بحرّ ماله ، ولم تكن تُعَلُّ أكثر من مائتي دينار في العام ، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

ماتت ديدر في العام ، لرجل كان دخله مئتي أبا م لا غير - أربعين ألف دينار .. !!

مائتا دينار ، لحاكم أعظم ، وأكبر ، وأغنى إمبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعرضه ، وتعيش معه أسرته التي كانت هي الأخرى - منذ أيام - لا غير ، نخب في النعيم خباً .. ونعب من المباح عباً .. !!!

ولكن ، أي بام ؟

ألس قد رفع الحق شريعة والغدل مهاجاً ؟

فليكن حسنه ألا تسقط الرايه من يمه وليكن حسنه أن يحلونها
 في مستوى ينقطع دون تنوع الأناس .. !!
 كل أرضه تركها للدولة .

كل ثروته القدييه ، دفعها إلى خزانة الدوله ..
 بن لقد جمع ثيابه وحلله الرافيه ، وحلن زوجته وأولاده ..
 ثم جمع مراكنه وعظوره ومساغه ، ثم دفع ثمنها الذي بلغ ثلاثة
 وعشرين ألف دينار إلى بيت المال .. !!

ثم حرم نفسه حتى حقها المشروع في راتب الخلافه الذي كان
 يستطيع أن يتناول عن نصفه أو عن ثلثه ، لكنه رفضه جميعاً إلى آخر
 درهم منه .. وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة .. مائتي دينار في العام -
 بواقع ثلاثة أرباع دينار في اليوم ، لأمر المؤمنين وروجه أمير
 المؤمنين، وأولاد أمير المؤمنين . !

أفما كان يكفيه أن يفرد هو بأعباء الهدوه ، تاركاً أهله وأولاده
 يحيون ولو في مستوى حياه أوساط الناس . ٩٩
 إنه يعبر هذا - لو حدث - احسلاً على المسئولية ، وهروباً من
 بعباء الهدوه ، ويرى البار بعد إله السنه اللامه ، لظوفه حسناً له
 وعقاباً .. !!

ومن ظن أننا نبلغ في التصوير ، ونسرف في صيغ الألوان فليطالع
 هذه الواقعة :

لقد عد يوماً إلى داره بعد صلاة العشاء ، ولمح بانه الصغار ،
 فسلم عليهم كعادته ، وبدلاً من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن ، رخن
 يعطس أفواههن بكفهن ويبادرن الباب .

فقال . ما شأبهن .. ؟؟

فاجب : بأنه لم يكن لديهن ما يتعشّين به سوى عدس وبصل ..
فكرهن أن يشمن من أفواههن ربح البصل ، فتحاشيته لهذا ..
فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :
يا بناتي ..

ما ينفعكن أن تعشين الألوان والأطياب ، ثم يذهب بأبيكن
إلى النار .. ؟؟ " !!

ونرى إحدى بناته الصغار صدقة لها تزين أذنيها بلؤلؤتين
جميلتين، فترسل إحداهما إلى أسها ضارعة أن بشري لها مشها
ويدعو أمير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يحيى بجمرتين ملهبتين
ثم يطلب ابنته فيقول لها :

"إن استطعت أن تجعلني هاتين الحمرتين في أذنيك ، جئتك
بلؤلؤين كهاتين" . !!

إن مسئولية القدوة - إذن - لا تنحصر فيه ، هو الخليفة والحاكم ..
بن - ويحسب مهجه وتقديره - تبال أهله جميعاً ، حتى بيا به الصغار ..
وهكذا راح يحملهم على الصحية في سبيل المسئولية والقدوة ..
اقرب يوماً من زوجته فاطمة ، وقال لها :

"إني لتعلمين من أين أتاك أبوك - عبد الملك بن مروان -
بهذه الجواهر ، فهل لك أن أجعلها في تابوت ، أضعه في
أقصى بيت المال ، وألق ما دونه ، فإن خلصت إليه أنفقه في
حاجات المسلمين" .. ؟؟

ولم يكن قد بقي لفاطمة سوى هذه الحسي وهذه الجواهر ، وهي

عزيرة عليها ؛ لأنها هدية أبها لها في عرسها ورفاقها .
ولكنها لا تُحادل زوجها "القديس" حتى في هذه . ويحترق منها
نحرها ، ومعصمها ، في غبطة ورضا .. !!

* * *

ويغادر - أمير المؤمنين - فصور الخلافة ، وبأوي إلى دار
متواضعة .. ثم لا تشهد هذه الدار إبعاد النار إلا لإماماً ..
ويأخذ عسى نفسه العهد ألا يستحدث لنفسه شيئاً من أشياء الدنيا
ومتاعها حتى يلقي ربه ..
يحدث ابن عياش ، فيقول :

كان لعمر مرفقتان برفى عليهما من صحن داره إلى حجره .
فهدمت إحدى المرفقتين ، فأعاد بناءها رحل من أهله ..
فلما جاء "عمر" ووجدها ، سأل من صنع هذا .. ؟
قالوا : فلان ، قال : إلي به ..
فلما جاء قال له عمر : ويحك أبيعنت على "عمر" أن يحرر
من الدنيا ولم يصع لينة على لينة .. ؟!
والله ، لولا أن يكون هدمي لها إفساداً بعد إصلاح
لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه . " !!

* * *

ويدخل عيه في داره أحد خاصته المقربين ، فيجده بركن منها
تعطبه الشمس ، وقد دثر جسمه كله في إزار . وحسبه الزائر مريضاً ،
فسأله ، ما باله .. ؟

فأجاب أمير المؤمنين :

" لا شيء ، غير أنني أنتظر ثيابي حتى تجف " .

فل زائرته . وما ثيابك يا أمير المؤمنين .. ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وإزار ..

قال صاحبه : ألا تتخذ قميصاً آخر ورداء ، وإزاراً ؟

ول الحليفة : كان لي ، ثم بليت .. !!

قال الزائر : ألا تتخذ مواها .. ؟؟

وهناك شرقت كلمانه بدموعه ، وراح نجهش دلكه مسداً وجهه

على راحتيه ، مُردداً آية القرآن الكريم :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا

فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .. !!

ولمّا كان يريد للدولة في عهده أن تكون رحمة وحناناً : فقد راح

يمرق عنها كل أفعى الصُّلف والكر والتماير .

وأبصاً ، بدأ بنفسه ، فمع الحراس أن يسروا بين يديه ، بل معهم

كما مع الناس جميعاً أن يقوموا له حين يطلع عليهم ، وقال لهم :

" إنما يقوم الناس لرب العالمين " !!

وباداه يوماً رجل من المسدس قائلاً " يا حليمه الله في الأرض "

فأخذته الرعدة الصالحة ، وصاح في الرجل :

" مه .. "

" إني لما ولدت أسماني أهلي " عمر " ، فلو ناديتني بـ

" عمر " أجبتك ..

ولمّا كبرت احترت لسمي كنه ، فكسب " أبا حمص " ، فلو

ناديتني - " يا أبا حمص " أجبتك

ولمّا وليتموني أموركم سميتوني "أمير المؤمنين" ، فلو
 ناديتي - "يا أمير المؤمنين أجتك .."
 "وأما حليفه الله في الأرض ، فليست كذلك .."
 "إنما خلفاء الله في الأرض رسله وأساؤه" . ||
 ومع الدعاء له فوق المسابر في حطبة الجمعة ، وأرسل بذلك كتاباً
 حارماً إلى ولايته في جميع الأقاليم ، قائلاً فيه :
 "مروهم فنبصّلوا على النبي عليه السلام ، وليكن فيه
 إطباب دعائهم وصلاتهم .."
 "ثم ليصّلوا على المؤمنين والمؤمنات .."
 "وليستنصروا الله .."
 "وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين .."
 "وليذعوا ما سوى ذلك" ||

* * *

وإذا كان قد حمل وأهل بيته معه مسئولية الصدوة على هذا النحو
 المجدد والفريد إذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ، فإن هذا لا
 يكفه ، بل لابد من أن يحملها أبصاً أمراء بني مروان جميعاً طائعين ،
 شعوراً .. وإن أبوا فكارهين .. ||

لن يدعهم يتذخون باسمه ، ويتحذون من هرايبه ملحاً ومغمماً
 إذا كان ولا بد ، فليكن هذه القرابة منحاً لهم من أطماعهم
 وشهواتهم ومغمماً بالزمامهم منهج أمير المؤمنين ||
 أما دون ذلك ، فلي تكون ديباهم في عهده كديباهم قبل عهده

لن يظّلوا طبقة فوق الأمة . ولن يُدلف إلى قصورهم وجيوبهم ثلث
لدخول العام للدولة ، كما كان أمرهم من قبل أن يُهلّ على الدنيا أيام
الأغرّ ابن عبد العزيز .. !!

ولقد راحوا بكل صراعاتهم يحاولون لإبقاء على بعض امتيازاتهم،
فلما فشلوا راحوا يُناورون ، ولما أحققوا ، راحوا يهددون .

لكنّ رجل القداة وقف لهم كالفدر ، وأحكم وضع الشكايم على
غرورهم وأهوائهم ، ثم دفع بهم جميعاً أمامه على طريق العدل والحق،
مُصنّياً ترفهم المنهوم .. !!

حدث يوماً أن أرسل إلى كل أمير وأميرة بمدر من المال يدبرون به
أمرهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشينة ، فبدؤوا واجتمعوا،
وقرروا أن يوعدوا إله صديقاً له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم العطء .

فكان جوابه لهذا الصديق :

"والله لقد بدمت على هذا الذي أعطينه إياهم ، وإني
لأعلم أن في المسلمين من هو أحقّ به ، وأحوج إليه
منهم .. !

وعاد مبعوثهم إليهم يقرع أسماعهم بكلماته المدرة ، ويقول لهم :

"يا بني أمية ..

لا تلوموا إلا أنفسكم ، فقد عمدتم إلى صحبكم "عبد
العزيز بن مروان" فزوجتموه حفيدة "عمر بن الخطاب" ،
فجاءتكم بعمر بن الخطاب ، منقوفاً في ثياب "عمر بن عبد
العزيز" ، فلا تلوموا إلا أنفسكم" !!

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلنا عيـه على الولاة والقضاة ، والأمناء على الأموال العامة - أولئك الذين سمعاه من قبل يبعثهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون أركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى أن الولاة ، بحكم كونهم نوابه في حكم الأقاليم والفضاء ؛ بوصفهم أهل الفصل في مصائر الناس بما يمكن من كفه الشريعة والقانون .

وأمنا بواب المال ؛ بما لهم من سيطره مباشرة على الأموال العامة وأرزاق الناس .

نقول . كان يرى في هذه المناصب أخطر مناصب الدولة وأكثرها ثقلاً وحساسية .. كما كان يرى في استقامة أمرها العامل الأول والأهم لمكين الخليفة من حمل مسئولياته في قسطام وسداد ..

وهكذا راح القدس يستكمل سمات القدوة للدولة ، باحسان ولأهـ ، وفضاته ، وأمانه في حرص من بحار عافيته ومصيره !!

ولقد كان من المفروغ منه ، أنه لن يجد من هؤلاء من هو في مستوى ورعه ، وشموخ نسكه وفصائله ، فراح يجتهد في العثور على من يكونون في مستوى رجائه وثقته ..

وسرع ، فعزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا في خدمه المظالم السابقة ، ثم ولى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة ، أمثال : "أبي بكر بن حزم" ، و "عبد الرحمن القشيري" ، و "عدي بن أرطاة البزازي" ، وآخرين من طرازهم وإخوانهم :

وكان أول ما أوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :
"كونوا في العدل والإصلاح والإحسان بمدر من كانوا ."

قلكم في الظلم والفحور والعدوان" .. !!

كذلك ، كان أول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات ، لأمينه :

"إني قد وليت عليكم رجالاً ..

لا أقول: إياهم خياركم ، ولكي أقول ، إياهم خير منكم هم
شر منهم" !!

إنه رجل يصعد به كلها فوق الميزان وإن كان حركته وكلماته
وقراراته، ومشاعره لتتحرك بقدر معلوم !!

ويمضي ولاته إلى أقطارهم ، ويسهرون على مسئولياتهم في ولاء
صادق .. يهودهم على الطريق ونشب أقدامهم وحطاهم سيرة حليمتهم
العدل القديس . هذه السيرة التي كان أريجها يتشرب إشار الصاء ،
وعبرها يهوج ويهت هوب الرياح والشرياب .. !!

لقد راحوا يحجنون من كل تقصر يندر من أحدهم .. وإذا سوك
لأحدهم نفسه ، شفاها من وساوسها بمحرّد تذكر خليفته العبد في
حياته الشظفة ، ورقاعه البالية !!!

وراح الحليمه يواليهم برمائه ووصاياه .. وصية من بعد وصيه ،
وكتاباً وراء كتاب ..

لنقرأ واحداً من هذه الكتب :

" .. أما بعد

فإن من اتبلي من أمر السلطان بشيء ، فقد اتبلي ببينة
عظيمة !!

"فنسأل الله عافيته وعونه ..

"وإني أدعوك أن تقف نفسك في مبرك وعلائك ، عبد الدي

ترجوبه النجاة من ربك ..
 "نذكر ما سلف منك من خطأ فاصْلحه ، قبل أن يتولى
 صلاحه غيرك..
 "ولا يمنعك من ذلك قول الناس ..
 "وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحاً في دينهم وأعراضهم ..
 "واستر كل عوراتهم ..
 "وامنك رمانك بجاههم إذا هويت ، وإذا عصبت"

* * *

وكما أحسن اختيار ولأه أحسن اختبار قصاته ، وأمء بيوت
 المال ..
 وأمر هؤلاء وأولئك أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الأمء
 على دين الله ، ودنيا الناس .
 وراحت أصواء قدامنه وقدونه تتعالى وتتعاظم حتى كنت مبرات
 هدية ، وسعت لدولة كلها والأمة جميعها بأنوارها الغامرة وهدايا
 الوثيق .

* * *

ثانياً، الشورى ضرورة ..

وننتقل الآن إلى المحور الثاني من محاور منهج الحاكم القديس
 وأسلوبه ، لشهد له تجاه الشورى موقفاً فذاً يمتاز بالعمق وبالشمول .
 لقد أدرك أن كل ما يشيده من دنيا صالحه ، وعالم قويم ، لن يكون
 ثمة ضمن لاستمراره وإنمائه سوى ساج منيع يصونه ويحميه . وتمثل

له هذا السياح في توسع قاعدة المسئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين ..

والسبيل لذلك ، الشورى الحالصة الصادقة .. ونعش رأي عام صريح ، وصادق ، وشجاع ، يبعد الأخطاء ويُسهم في إصلاحها .
لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد .. لكن ديمقراطية الحكم مع ذلك كانت تَبَسُّ وتُسْفِر كالشمس من خلال أسلوبه في الحكم ، وطريقته في اختيار ولاته ويطائنه ، واستعداده لنقل النقد ، وسماع كلمة الحق ، ونظرته إلى الأمة التي بحكمها ، ومدى ولائه لحقوقها وحرياتها .

وبهذا المعيار والمِيزان ، يقف "عمر بن عبد العزيز" في هذا المجال وكأنه نسيج وحده !!!

لقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، والذين لا يُزيفون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل ، وإن قطعت منهم لرقاب .. جمعهم حوله ، يفكرون معه . بل لقد كان يوصي بعضهم أن يحسن بلقاءه وهو في مجلس الحكم ، ويضع عينيه المفتوحة على حديثه ، وحركته ، فإن نسي وقال كلمة ، أو أتى حركة فيسها شبهة من خطأ ، نهوه على الفور بإشارة ، تُعارف وإياهم عليها ..

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست رفأ .. وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم ، وشاع الحق ، واستوثق العدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دسهم ، وكما ولدتهم أمهاتهم أحراراً ..
من أجل ذلك ، راح في سرعة الضوء يخلق رأياً عاماً صادقاً أميناً ،

في طول الدولة وعرضها ..

وراح يصع الحاكمين والمحكومين وجهاً لوجه أمام مسئوليهما
المشتركة ، بل الواحدة في دحض الخطأ والبرام الصواب ..
فكتب للولاة قائلاً :

إنكم تعدّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً
ألا إن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم !!!
ثم يكتب للناس في مخلف الأقاليم قائلاً :

"أي عامل من عمالي رعب عن الحق ولم يعمل بالكتاب
والسنة فلا طاعه له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم ، حتى
يراجع الحق وهو ذمهم... !!!"
ويرسل إلى أحد ولاته قائلاً :
"قد كثرت شاكوك . وقل شاكروك . فإما اعتذلت .. وإما
اعتزلت" !!

هكذا رفع سلطة الشعب في وجه سلطة الحكم ، وأسم نواصبى ولاته
وعماله للرأي العام بقودهم على طريق الحق طائعين أو كارهين
ولكى يدغم هذه السلطة ، فتح أبوابه على مصارعها لكل شاكٍ أو
متظلم من حاكمه وواليه .. وأرسل منشوراً موجزاً إلى جميع الأقطار :
"من ظلمه إمامه مظلمة ، فلا إذن له علي" .

أي لبقثحم عني داري ، غير منتظر إدناً ، وغير واقف باب !!

* * *

وإنه ليسهرنا أسلوبه الفريد في بحث الرأي العام الشجاع ، وتزكية
حرية النقد ، وشد زنادها إلى أقصاه .

ففي سبيل ذلك ، براه يرسل من بيت المال جوائز معربة لكل من
يكشف عن خطأ ، ويهدي إلى صواب . !!
ولنطالع في إجلال ، المنشور الذي كتبه ، ثم أمر أن يُقرأ على
لئس في المواسم والمحافل والمحامع .
"أما بعد ..

فأيما رجل قدم عليا في مظلمه بردها ، أو أمر يحيي الله به
حقا ، أو يمين باطلا ، أو يحيى بحير ، فيه ما يس منه
ديار إلى ثلاثمائة دينار ، بغدر ما يتكابد في ذلك من طوب
السفر ويُعد الثُّقَّة" .. !!

أليس عجبا هذا الذي تقرأ ونرى .. ؟؟
ألا ، وإن أعجب من ذلك ، أن بطل هذا كله رجل لم تكن يئته ولا
عصره بقادريين على تشكيل بنانه .

لكها صِبْغَةُ اللَّهِ ومعزة الإسلام !!!
ولكم كان صادقا حين قال :

"لو وكَلَى الله إلى نفسي لكنت كعيرى" .

لقد راح يضرب المثل الأسمى والقذوة الباهرة في تقبل القدر - هو
الذي لم يعرف الناس له حلال خلافه كلها خطأ واحداً يستأهل القدر
والتفنيد ..

ولقد كانت العطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له .

إلى أين ؟ ولماذا ؟

هنالك يُرَبِّتُ كَتِفَهُ ، ويُدْنِيهِ مِنْهُ ، ويقول له :

"زِدْنِي يَا أَخِي ، جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا" !!

إنه يلتمس الحكمة والصواب وراء ألسنة الصادقين حتى حين يكون أحدهم طفلاً ..

قَدِمَ عليه وقد من المدينة يوماً ، وتقدم من يسهم علام صغير لتحدث باسمهم ويعرض فصيتهم ، فتعلاه أمير المؤمنين ، وقال له :
"يا بني .. دع القول لمن هو أسنُّ منك" .

وبدو أن العلام العربي الأصل كان يحمل نبوغاً مكرراً ، فقد أجاب الحليفة من فوره :

"يا أمير المؤمنين

المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ..

ولو كان الأمر بالسِّن ، لكان في المسلمين من هو أحقُّ بهذا الأمر منك" .. !!

وفجأة ، نشال دموع العظة والفرح من عيني المدبس ، وشهّل وجهه ، ويهتف بالعلام :

صدقْت .. صدقت ..

عظيبي يا بُني .. !!

وإن أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوماً شاهراً سيفه ، يسبُّ ويشتم أمر المؤمنين على ملا من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعنفه الوالي .. ويرسل لأمير المؤمنين بأمره ، ويقول في كتابه : "لقد هممتُ أن أقتله" ..

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فوراً .

"أما والله ، لو أنك قتلتَه لقتلتك به" .. !!

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجلٌ من عامّة السّ، رافعاً عميره
 في وجه الحلقة بكلمات شرّ عبط الحليم ..
 فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل :
 "لعلك أردت أن يستمزي الشيطان بعزّة السلطان ؛ فأنا
 منك اليوم في الدنيا ما تتقاضاه مني غدًا عند الله .
 "ولكن ، لا ..
 "قم ، عفا الله عنك" .. !!!

* * *

ومن أذكى وأبلغ ما أدّاه "أبن عند العزيز" في سبيل إنهاص رأي عدم
 أمين على مسئولياته وقادر عليها - حمر ذلك المدّ الطاعني لدولة الشّع
 والشعراء التي كانت قائمة يوم ذلك .
 لقد رأينا فما سلف من حدث ، كيف اصطاع الأمويون الشعراء
 لترييف الحق ، ولتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والأخلاق ،
 حتى لقد كانوا عقمه كنوداً في سبيل معرفه الحففة ورؤسها . والآر ،
 يتقدم الطل القديس ، مُطلقاً رياح الحففة وراء هذا لصباب فتكسه
 وتُدّده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة نقية مُشرقة بنور الحق وحده ..
 لقد وقف يخطب الناس فقال :

"من أراد أن يصححنا ، فليصححنا بخمس ، أو فيفارقنا ؛
 * يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها .
 * ويعيننا على الخير بجهد ..
 * ويدلنا على ما لا يهدي إليه من الخير .
 * ولا يغتابنّ عندنا أحداً ..

* ولا يَعرَضَنَّ لما لا يعنيه .. "

ومن الدلالة الطريفة والسالعة ، أن جمع كتب التاريخ التي تنقل هذا الخطاب ، تُتبعه بقولها :

" فانقضَّ عنه الشعراء والخطباء ، وثبت معه الزهاد والفقهاء .. أ "

أجن .. فمعظم شعراء عصره - وعلى رأسهم الأخطل ، والفرزدق ، وجرب - لم يكر لهم مع هذه الخمس ، ولا مع واحدة منها رَحِمَ ولا قرابة .. !!

فهم إما مآدحون بغير حق .. وإما هاجون بغير حق أيضاً .. وهم في كلتا ، لحالتي يحرمون الرأي العام رؤية الصدق بما ينشرون من أذاليل ويهتان .

والآن ، يجيئهم رجل عظيم ، لا حاجة به إليهم . فبيست له عداوات ، يحتاج للشعر في تأجيجه . وليس له طموح ، يحتاج للشعر في قرع الطول له وبيست له شهوات يحتاج للشعر في تزيينها ، ولا أخطاء يحتاج لتبريرها .

وليس له بالنسبة ولع ، فيحتاج للشعر في حمايتها واستئانها . ثم إنه لا وقت لديه ، ولا وقت لدى أمته لهذا الهدر لعريض الذي ملأ به الشعراء ساحة العصر الأموي كله .. !!

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمة ، مكافأة على مدح أو اتقاء لهجاء .. !!

وراح - أمير المؤمنين - يشرف بنفسه على إمداد لرأي العام بكل
الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق مشوراته التي كان يرسلها للولاة ، ويبعث
بها إلى شتى الأقطار ..

ولقد بدأ بدحر تلك الحطشة العاشرة التي كان الحكم الأموي
يمارسها في سمائة ، وهي لعن "الإمام علي" كرم الله وجهه على
المنابر..!!

وَأَمْرٌ أَنْ يَهْرَأَ الْهَطَاءُ مَكَانَ الْكَلِمَاتِ الْآثِمَةِ - تلك الآيات
الطاهرة:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي
قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾
﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

* * *

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق ..

ودحر الباطل ، وآزر الحق ..

وكان ذلك إسهاماً فعالاً في إيهام رأي عام خفيف وأمين .

وأمير المؤمنين - عمر - لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها إدر ك
حاكم عادل صالح فحسب .. بل إنه ليدرك كذلك جوهره ، يدرك
فيلسوف .. !!

فهو لا يرى فيها مجرد نظم عادل لعلاقة السلطة - لأمة ، وتنادي
المسئولية بنجاح الدولة والمجتمع - بل يمضي في اتجاه التحليل
النهائي لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك ممثلاً في طفر كل فرد من

لدى بحقه في احتبار اصابعه - وحق هذا الاصبع في التعبير عن نفسه ،
في غير زيف أو غموض ..

ذلك أن لاس حين يُرىفون اصابعهم بسب رعبه ، أو رهبه ، فإنه
يستحيل في الوقت نفسه ، وللسبب نفسه معرفة آرائهم .

وم دامت الآراء الصادقة هي مادة الشورى وأدائها ، فإن اختفاء
هذه الآراء إذن ، يُعتبر وأداً للشورى وإلغاءً لمهمها ..

وهو نطل علينا عظمة المديس "عمر" وهو يضع اقتناع الناس -
حتى حين يحالفهم ويحالفونه - موضع القبول والتقدير ..

والوقائع التي تحكي ولأه الوثيق لحرمة الاقتناع بزدهم بها الشهور
التسعة والعشرون التي قصاها حلقة وإماماً .. لكننا نختار منها هذه
الواقعة التي تكاد تعطي التعبير النهائي لهذا الولاء ..

لعبا يعرف الكثير عن الحوارج الدين انشقوا على "الإمام علي" كرم
الله وجهه ، حتى اعتاله واحد منهم .. هؤلاء الدس تحولوا بعد ذلك ،
وحلاب لعصر الأموي إلى فرق كثيرة ، حملت سيوفها وحاضبت صد الدولة
معارك كثرأ ذهب منهم خلالها ألوف الصحايا .

وبالإضافة إلى نشاطها المسلح هذا ، فقد كان لبعضها آراء وعقائد
لا يركبها قرآن ولا سنة . ومع ذلك كله ، نرى الحليمة العابد الأواب لا
ينسى حتى في فتنهم هذه ، حقهم في أن يكون لهم اقتاعهم ، ثم لا ينسى
واجبه في احترام هذا الحق لهم ، وواجبه في إعطائهم فرصة التعبير عن
رأيهم بصوت مرتفع ، ما دام نشاطهم لا يتحول إلى عمل إرهابي
يسهدف سمك دماء الآخرين الذين يحالفونهم في اعتمادهم واعتمادهم .

بل إننا سراه يرى بحصافته الباهرة ، أن السيل الأمثل لصرهم عن

النَّامِرُ ولإرهاب ، هو رفع العطاء عن البحار المحبوس ، وتمكين الرأي
الحبس المكوث من الانطلاق ، قبل أن تتحول داخل نفس صاحبه
المقهورة إلى جمد موبور ، وفديفه رُغَاء !!
وهكذا ، لا تكاد إحدى تلك الفرق تتحرك في الأيام الأولى من
خلافه ، مسأفة نمردها المسيح ، حتى يرسل إلى رعيمها هذا الكذب .
أما بعد ...

فقد بلغني أنك خرجت عصياً لله ولرسوله .. ولست أولى
بذلك مني ..
فَهَلْمْ أَمَاظِرْكَ ...

فإن يكن الحق معنا ، تدخل فيه ، وإن يكن الحق معك ، تراجع
أهستنا وننظر في أمرنا .. !!
ويفرأ الزعيم الثائر كلمات "القدس" فيدخل من نفسه ، ويلقي
سلاحه ، ويرسل مبعوثين إلى عاصمة الخلافة ، يُجريان مع الخليفة حواراً
حول ما يسهما من فصايا وحلاف .. ويحري الحوار بينهما رائعا ، صديعا ،
تتحلى جلاله موهبة - ابن عبد العزيز - في رؤيه الحفصه ، ونوجه المطلق ،
وامتلاك الأفئدة والعقول .. !!

ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم ، أن يبقى لك لفرقه المتمرده
سلاحها - بعد ما تبين أنها في عصر رجل جديد يستمي لعصر لنسوة
و لוחي ، رجل بخجل الشيطان نفسه أن يشعَبَ عليه ، أو يتحداه .. !!
على أن لهذه الواقعة - برغم دلالتها العفصية - مثلاً آخر يكمل
الصورة التي ترسم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرمة الرأي وحرمة الاقتناع .
فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من مطلق الحوارج

وحيحهم، لم ير القوة قط مسيلاً لدخض هذا المطق وإسكانه - بل رأى
أن قيام منطق أهدي، وحجة أوضح وأصدق، هو السبيل لإظهار الحق
وإخماد الباطل.

وهكذا تنقى به، وقد قامت فرقة أخرى من الخوارج - هم "حرورية
الموصل" يسبحون في البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم. ويكسب إليه
حاكم الموصل، يستأدنه في قمعهم وإسكانهم ..

أقول: نلتقي بأمير المؤمنين يجب واليه فيقول:
"إذا رأوا أن يسبحوا في البلاد في غير أدنى لأهل الذمة."
وفي غير أدنى للامة فليذهبوا حيث شاءوا ..
"وإن نالوا أحداً من المسلمين، أو من أهل الذمة بسوء،
فحاكمهم إلى الله .."

يا الله، ما أعدله .. وما أروعه .. !!

إنه لا يرى لنفسه حقاً - أي حق - في الحجر على آراء الآخرين، ولا في
الوصاية عليها ..

وهو - كحاكم - لا يرى لنفسه أي حق في التدخل إلا حين يوجه
خطر مسلح يهدد سلامة الدولة والامة ..

أما دون ذلك، فكل رأي حرمة، ولكل اصاع حقه وحرية ..
وهذا اسبح الراشد السديد، هو الذي مكس للشورى في عهده
نمكياً تكاد تنقطع دون بلوغه أنفاس كل الديمقراطيات .. !!

ولطالما قالوا له يومئذ: إن هؤلاء الخوارج يشرون بين الناس أفكاراً
رائقة، ويكسبون الحق بالباطل، وإن تركهم يحوبون البلاد بفائدهم هذه،
عمل ينذر بسوء مآب ..

فلا يزيد القديس العادل على أن يذكر مُحدثه ومُحرّضه بآيات القرآن العظيم التي بهى الله فيها رسوله عن أن سُوسَ ضمائر الناس بالفُهر والبُطش .

﴿ أَقَالَتْ لِكُرْهُ النَّاسِ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ٩

﴿ وَمَا أَلَتْ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ ١١ .

﴿ إِنَّمَا أَلَتْ مُذَكَّرًا ، لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ ﴾ ١١

ولقد وقعت العواقب ببجائه ، وأنتت صدق رأيه وذكاء تقديره فالحوارج الذين لم يصعوا سلاحهم يوماً واحداً مد حكم معاوية ، حتى سيمد بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم إلا إمعاناً في التحدي وضراوة في القتال .. نراهم في عصر هذا القديس الجليل تغمّدون سيوفهم ، وسنوّن طوال عهد خلافة كن ما لهم عبد الأمويين من ترات ، وثارات ... !!

* * *

وثالثاً ، المال وريعة ..

وأمام المشكلات الاقتصادية ، ومشكلات الدخل والتوزيع التي تُحيرُ الدول في كل العصور والأزمان ، لم تأخذ "عمر" حيلة ، ولم تُعصيه أزمة ..

ذلك أنه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير أمرهم أعظم وأهدى مما تدبر ألمع عبقریات التنظيم والاقتصاد .

والدولة المسلمة - يومئذٍ - لم يكن يتقصها المال إنما كان يتقصها اتباع الحق في تعاضده .. واتّباع العدل في توزيعه

وقبل هذين ، بُعِثَتْ حرمة الأموال العامة وقداستها في ضمير الدولة ، بكل مسئوليتها .. وفي ضمير الأمة ، بكل أفرادها .. إن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من إيمانه بقول الله تعالى :

﴿ وَالْفُقَرَاءُ بِمَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

فمصادر الإساح ، والإنتاج ، والثروة .. كل ذلك إذن ودعته الله عند الناس ذولاً ، وأممًا ، وجماعات ، وأفراداً .
ولودائع الله هذه حرمتها التي نأى بها عن التلف ، والسرف ، والبغى ، والاحتكار ..

فإذا اكسبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفًا آخر ، فصارت أموالاً عامة ، فإنَّ حرمتها وقداستها تزداد ..
ذلك أن معنى كونها [أموالاً عامة] أنها حقوق شائعة وثابتة لكل أفراد الأمة .. لكل أرملة فيها ، وكل يتيم . لكل مُسنٍّ ، وطفل ، ورضيع .. لكل فقير ، وعاجز ، ومريض ..

وهي بهذه المثابة ، مثابة أسها - أولاً ، ودائع الله . وثانياً : حق الناس ، جميع الناس .. تتمتع بحرمة بالغة ، وقداسة وثقى .
و "أبو عبد العزيز" يرى نفسه مسئولاً عن إعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحق ..

وإنه يُعَبِّرُ عن ذلك في كلامه الفاصلة .

"إِنَّمَا أَنَا حَاجِبُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَالِهِمْ" !!

كما يُعَبِّرُ بسلوكه تجاهها تعبيراً يهر الألباب ..

إنه يرسل خادمه يوماً ليسحس له بعض الماء كي يتوضأ به في يوم

شأت زهير ..

ويعود الخادم مسرعاً بالماء الدافئ ، فيسأله الخليفة : أين أدفأه
بهذه السرعة .. ؟

فيجيب الخادم : في مطابخ المسلمين ..

وكان - عمر - قد توسع في إنشاء مطابخ عامة للناس يُفق عليها من
بيت المال .

فعدت الخليفة خادمه على صسعه ، ورفض أن تمس الماء جسده حتى
يذهب الخادم إلى المائم على هذه المطابخ شمس تسحب هذا القدر
الضحل جداً من الماء .. !!!

وإننا لنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر أمور الدولة
ليلاً على مصباح يؤخذ زيتته من بيت المال ، وإذا عرض له أثناء ذلك
طارئ شخصي - ولو كان لا يسغرق سوى لحظات - فإنه يطفى مصباح
بيت المال ، ويؤخذ شمعته أو مصباحه ، حتى يسهي من ذلك الطارئ .. !!
ولقد يرى بعضهم في هذا المثلك نوعاً من الرُّمْت المعرق .

ولقد يروُن في إعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام الورع من
رؤس دولة عظمى ، كالدولة التي كان يحكمها - ابن عبد العزيز - أمراً غير
مألوف .. وربما غير مستاغ .

غير أنهم حين يفكرون على هذا النحو يقولونهم أن الذي كان يحرك
اهتمام الخليفة وورعه ، لم يكن تلك الشكليات ذاتها ، إنما هو المعنى
الكسر الذي يملأ ضميره ، وشكل سلوكه تجاه الأموال العامة وحرُمها
وقداستها ..

ويعد ذلك يستوي أن يكون هذا المثل - عندل درهم من ريب

مصباح.. أو ملء حجرة فضة وذهباً .. ا

إنه يذكر ، ويدكر الس دائماً بالاله الكريمه .

﴿ ومن يقلل يأت بما عل يوم القيامة ﴾ !!

و لعل عنده في أحقر الأشياء ، مثله في أكثرها وأحظرها .. وفيه

يسنأثر به لنفسه ، مثله فيما يجود به على غيره !!

بل حتى الهدايا ، رآها علولاً ، أو شيئاً يشبه العلول .

جاءه يوماً هدية ، فاعذر عنها - ففيل له : إن رسول الله ﷺ كان

يقبل الهدية ..

فأجاب قائلاً :

"لقد كاتب للرسول هديه ، ولكنها لنا رشوة" !!

* * *

إن موقفه من أموال الأمة لعجيب . ثم عجب .. !!

وإن لها في فؤاده ، لدكي التفني لحرمه نصامي حرمه الإيمان ذاته ، وحرمه

التوحيد .. !!

يطلب منه أحد ولانه الإذن بمرئ من الشموع النبي كاتب د ر الإمارة

نضاء بها ، ونضاء بها للأمير وهو في طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء

والفجر ..

فيحييه الحبيبة بكتابه هذا :

"لقد عهدت لك يا بن أم حرم ، قبل أن يكون والي ، بخرج من

بينك في الليلة الشاتية المظلمة بغبر مصباح ..

"ولعمري ، لآت يومئذ حير منك اليوم ، ولقد كان في فائز

أهلك ما يغنيك" !!!

ويكتب إليه وإلى آخره ، يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة ، فبجيبه الخليفة أيضاً :

"إذا جاءك كتابي هذا ، فأرقُ القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة في الصفحة الواحدة ..
"فإنه لا حاجة للمسلمين في فصل قولٍ أضرُ ببيت مالهم...""

ها بيت القصيد . [أضرُ بيت مالهم] !!

فلمشكلة ليست مشكلة قلل أو كثير من الشموع والأقلام والأوراق.. فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعاً وأقلاماً وورقاً.
إنما المسألة في وعي "الحاكم العдис" هي حرمة هذه الأموال وقداستها . هي تجنب التفریط والإفراط فيها .. هي درجة الولاء لمسئولية رعايتها وحفظها .. وبهذا المعيار نصح كل عبث بها مرفوضاً مهما تكن ضالة مقداره ..

ذلك أن الإسراف الذي يتمثل اليوم في شمعة أو قلم .. ميسر عداً - إذا استهن بأمره - فيما هو أوحش عاقبه وأسوأ مصيراً .. !

* * *

هكذا أرسى لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس ،

ونعود إلى موقفه من "مشكلة الدخل والتوزيع" .

قلنا : إن الدولة يومها لم يكن يقصها الشراء .. إنما كان ينقصها تقصي الحق في جمعه .. والعدل في توزيعه ..

ففيما يتعلق بالدخل .. نرى الخلفاء قبله ، وقد أزهق الترف والسرف

مزايا الدولة ، راحوا يُعَوِّضون ذلك بجمع المال بوسائل غير مشروعة ،
وضرائب غير عادلة ..

فأهل الكتاب الذين يعتقدون الإسلام ، يصع عليهم الدين ضريبة
الحزبية فوراً . لكن الدولة الأموية تأبى في ذلك حكم الإسلام ، وتُبقى
الضريبة فوق كواهل الدين أسلموا ، مسوعة ذلك بأنهم إنما يسلمون
فراراً من الضريبة.. !!

وسحق الحسنة العادل فبرفض هذا التسويغ الزائف ، ويُعلن أن
فرح الإسلام بمرد واحد يدخل في دائرة سوره وهذاه ، حير من مرء
الأرض مالاً وذهباً .

ويطلق أمير المؤمنين كلماته المصيبة هذه :

"إن الله بعث - محمداً - هادياً ولم يبعثه جايئاً" !!

ولقد أرسل إليه وإليه على العراق "عدي بن أرطاة" يقول: "إن
الناس قد دخلوا في الإسلام أفواجا ، حتى حشبت أن يقل الخراج"
فيجبه الحليفة المُفْطِط العظيم :

"والله ، لو دِدْتُ أن الناس كلهم يُسلمون ، حتى تكون أنا

وأنت حرَّائين ، ناكل من كُسْبِ أيدينا . !!!"

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التي كان الخلفاء السابقون قد
فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل حتى الضرائب المشروعة ، مثل ركاء الرروع والثمار ، كان
يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم حوانح ، أو تتعرض لوار .

ه هو ذا يكتب لواله على اليمن "عروة بن محمد" :

"أما بعد ..

"فقد كتبت إليّ تذكر أنك قد دفن اليمر ، فوجدت على أهلها ضربه من الحراج دسه في أعناقهم ، كالحربه يؤدونها على كل حال .. إن أحصبوا ، أو أجذبوا .. إن حيوا ، أو ماتوا . "فسيحان الله رب العالمين !! ثم سبحن الله رب العالمين !!

"إذا أتاك كتابي هذا ، فدع ما نكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ..
 "واعلم أنك إن لم برفع إليّ من جميع الممن إلا حملة من كرم^(١) ، فقد علم الله أنني سأكون بها مسروراً ، ما دام في ذلك إبقاء على الحق والعدل" ... !!!

ولعل بعضنا يأخذ العجب . فيما كان المتوقع ما ونحن نتحدث عن "الدخل" أن نشير إلى اكتشاف مصادر جديدة بريدة ، وموارد نرة تُصاعفه ونُفّيه ، إذا بنا نظري مساهم الحبيبة تحاه الدخل العام ، لأنه ألغى الكثير من تلك المصادر والموارد .. ؟!

ولكن ، ما حبنا ، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون - ابن عبد العزيز .. ؟!

إن المسألة عنده ليست مسألة كثرة .. بل مسألة وفرة .
 والوفرة ، تكون في بركة الحلال المشروع ، لا في كثرة الحرام المغتصب ..

ولعل من واجبتنا قبل أن نعادر هذه النقطة من الحديث ، أن نقول

(١) الكرم : نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه عداد للكتابة .

لعض المؤرخين الذين يردّون اضطراب مالية الدولة بعد موت أمير المؤمنين - عمر - إلى سياسته الضرائبية هذه .

ومن واجبا أن نقول لهم : أغلب الظن أنكم محطنون . فقد سارت الأمور في عهده كله على أتم نسق . ولم يكن تُدير بأيّ عجز أو اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك ، تُرهص ونشر بمرشد من النماء والرخاء والاستقرار .

إنما اضطرب فيما بعد ، حين غاب - البطل - عن مسرح العدالة والحق . وعاد السرف والشرف والفساد ، وسياسة السطو مرة أخرى تعيث وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القديس . !!

* * *

على أن - الخليفة - حين ألغى الضرائب الظالمة ، أتاح في نفس الوقت مورداً ثراً للدولة ، حين ردّ إليها جميع الأرض والثروة التي كانت تحت أيدي الأمراء .

ومورد آخر ، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل وأثرها . ذلكم هو وضع كن درهم في مكانه وضرورته .. وتحريم كل تبذير ، وتحريم كل سرف ..

أجل .. لقد كان - ولا يزال - وضع المال في مكانه الصحيح وداحن ضرورته الملحّة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر ..

ولمذ - التزم - عمر - هذا النهج التراماً يكاد يكون مطلقاً مع نفسه ، ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوي قرياءه ، وأصدقائه ، والناس أجمعين .
ها هو ذا أحد المقرّبين إليه ، الأثيرين لديه - عسّة بن سعيد - يذهب إليه يوماً ، يسأله حاجة لنفسه .

فستطالع جواب الخليفة له :

" يا عنسة .

" إن يكن مالك الذي عندك حلالاً ، فهو كافيك .

" إن يكن حراماً ، فلا تُضيفنُ إليه حراماً جديداً ..

" أخبرني يا عنسة ..

أحتاج أنت .. ؟ لا ..

أفعليك دين .. ؟ لا ..

" إذن ، فكيف نطمع في أن أعمد إلى مال الله فأعطكه في

غير حاجة .. وأدع فقراء المسلمين ؟!

" لو كنت غارماً ، لأديتُ عنك غرمك . أو محتاجاً لأمرتُ

لك بما يصلح شأنك ..

" فليكن لك في مالك غناء ..

وأتق الله ، وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن

يحاسبك أمرع الحاسبين " . ۞

إن هذا الذي قاله لصديقه الحميم " عنسة " كان يقوله لكل من

يسأله ما ليس له بحق . على أن هذا الذي هو حق في تقديره ، لم يكن

يتمثل عنده إلا في ضرورات العيش والحياة .

وهكذا أتيح له أن يحول شهقات البائسين إلى بسمات منهية ،

وفرح غامر ، دون أن يحول الشراكة إلى طقة بديلة للبائسين .

إن كل ما صنعه بهم أنه أخذ منهم ثرقهم وتخمتهم ، ثم تركهم

يحيون كراماً متواضعين .. ۞

وهما ينفلا الحديث من الدخل ، إلى التوزيع . فكيف راح الحاكم
 القديس يورع أموال الأمة ، وأين كان يصعها ..؟؟
 لقد رذ المال إلى وطبعه الحقيقية ، وإلى ذوره الأصيل ومسئوليه
 الأولى في خدمة الأمة وتغطية احتياجاتها .
 لقد بدأ فرسم حدود الكفالة الشاملة التي مستهض بها الدولة تحاء
 مواطنيها جميعاً ، فرداً فرداً .. وحدد بالتالي مسئولية بيت المال تحاء تعطية
 هذه الكفالة كلها .

نرى ذلك في كتابه إلى ولاته :

" لا بدّ لكل مسلم من :

* مسكن بأوي إليه ..

* وخادم يكفيه مهنته .

* وفرس يجاهد عليه عدوه .

* وأثاث في بيته .

* فوفروا ذلك كله ..

ومن كان غارماً ، فافصوا عنه دبه " .. |||

والتعبير بكلمة "مسلم" ها .. لا تعني قصر هذه المزايا .. بل الحقوق ..
 على المسلمين وحدهم ، إنما استعمل هذا الوصف لعلّيته لا أكثر .. ثم
 كانت هذه المزايا والحقوق من حقّ المواطنين جميعاً .. مسلمين وأهل
 كتاب ...

وأمر الخليفة ولاته أن يبدعوا بتغطية حاجات أقطارهم ، وما فاض
 وبمي يُرسل إلى الحراة العامة . ومن قصر دخل إقليمه عن تعطية
 حاجات أهله ، أمده الحنفية بما يغطي عجزه .

"استوعب الخراج وأحرره في غير ظلم ..
 "فإن يك كافياً للناس ، فحسناً وإلا فاكتب إليّ حتى
 أبعث إليك من المال ما توفر به لناس أعطاهم" . !!

* * *

وراح "المبارك المسمون" يشي في طول البلاد وعرضها دور
 الضيافة ، يأوي إليها المسافرون وأساء السبل ..
 ومضى ، يرفع مستوى الأجور الضعيفة ..
 وكفل كل حاجات العلماء والمفسهاء ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم
 دون أن ينتظروا من أيدي الناس أجراً ..
 وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يفرغوا لمهامهم ، وحتى لا
 تضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام .. !!
 وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده
 ويقضي له أموره على حساب الدولة ..
 ولكل مريض أو مريضين بحادم ، على حساب الدول ..
 وأمر ولاته بإحصاء جميع العارمين ، فقصى عنهم ديونهم .
 وافندى أمرى المسلمين جميعاً ، وأعدق عليهم العطاء ..
 وكفل اليتامى الدين لا عائل لهم في جميع أقطار دولته العريضة
 المترامية ..

وكما فعل جدّه العظيم - عمر بن الخطاب - من قبل ، فعل هو أيضاً ،
 فأمر أن يُفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد
 فطامه ، حتى لا تتعجل الأمهات فطام الرضعاء فيتعثّر نموهم ، ويضمحل
 قواهم .. !!

ومن أجل ألا تتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منع أن يجمع
أحد بين عطاءين ..

وحرم على جميع العاملين والموظفين الجمع بين راتبين مهما تكن
الأسباب!!

* * *

وهكذا تقسّط الناس جميعاً في عهده العظيم ما أفاضه الله عليهم من
خير ورزق .

وإن لكاد يدهل أمام ذلك الإجماع التاريخي الذي يحدث عن
احتفاء لفقير والمفراء في عهد القديس الورع ، "عمر بن عبد العزيز" ،
حتى لقد كان الأغنياء بحرحون يزكاه أموالهم فلا يحدون فقيراً يأخذ
ويسط يده إليها .. !!

ذلك أن عدل - ابن عبد العزيز - لم يكف الناس حاجتهم فحسب .
من ملأهم شعوراً بالكرامة والفتنة ، فلم تعد تسهويهم الصدقات مهما
تكن كبيرة وكثيرة ، بعد أن أعياهم الله من فضله بالحق ، وبالعدل ،
وبعبده الصالح "عمر بن عبد العزيز" !!

* * *

ورابعاً، وحدة الأمة وسلامها ..

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعاً ممزقاً ، يتربص بعضه ببعض
الدوائر ويتربص كنه بالدولة الدوائر . !!

فحلّده بني أمية، كانوا يوسلون لدعم نفوذهم وسلطتهم بشيخ
العصية والقبلية والإقليمية، فخصّ أحدهم بعطية القيسية ، ويخص

آحر السماية.. ويمير أحدهم أهل الشام . ويمير آحر أهل العراق .
وسملت العدوى من الحنفاء والولاء إلى الفئائل ورعمائهم ، فظهر
من يبادي بسيادة أهل الحضر - وفي مواجعتهم ، ظهر من يبادي بسيادة
أهل البادية ..

كذلك كان الحلفاء الأمويون قد جَنَحُوا للهووط بمكنة لمسلمين
من غير العرب - أولئك الذين عُرفوا باسم "الموالي" ، ففرصوا عيبتهم
الحزبية ظلماً ، وحرموهم الحقوق التي يكملها لهم الإسلام ، على الرغم
من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الإسلام عالياً في كل
مجال .. !

كذلك كان هناك الفرق الكثيرة ، من شِعة وخوارج ومُعْتَزلة، منهم
مَن يحمل السلاح في وجه الدولة، وفي وجه خصومه في الرأي ، ومنهم
من لا يحمل السلاح ، ولكنه يحمل الكلمة المسمومة . ومنهم مَن يلزم
حدود المنطق والحِجَاج ..

* * *

ورث "القديس" المجتمع على هذا المرق والتشتت ، فنبغ فيه من
روحه الطاهرة الطاهرة نفحة مباركة نَفَتْ عنه في لحظة كل هذه الحبث .
وطهرت - لا شكل المجتمع وعلاقته الطاهرة فحسب - بل ضميره وروحه
أيضاً ، فشهد مجتمع الإسلام في أيامه إخاءً وثيق التراحُم .. وأخذ كلُّ
حقه .. وقنع كل بحقه .. !!

فأم عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بلحجة والبرهان .
وأما الموالي ، فقد وضع عنهم إصْرَهُمْ ، وصَحَّح وضعهم .
وأما الزعة الفبسية والإقلمة ، فقد طواها بيميه .

ولم يعد هناك قيسون ويميون .. ولا عرافيون وشاميون .. ولا عرب
وموالي ..

لقد عادت رَحِمُ الإسلام تنظم جميع أبنائه كالعقد المنظوم ،
وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة في قول الله تعالى :
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

* * *

ولم ينف تصور "أبي عبد العزيز" لوحدة الأمة عند هذه الحدود
وحده .. بل امتد إيمانه بالوحدة وفهمه لها إلى وضع الأقباط ، فأكد
دمجهم في جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .
ولقد رأينا في رساله مرتب بنا من قبل ، أرسلها لأحد ولاته بشأن بعض
الحوارج ، فقال له :

إن ساروا في الأرض دون إساءة لأهل الدمه ، وللأمة ،
فدعهم ..

وهي كتب كثيرة لولائه ، نراه يؤكد على الوصاء بأهل الدمه ، أولئك
الذين سماهم الإسلام - أهل الدمه - تؤكداً لما في دمه المسمين لهم
من عهد وميثاق .. !!

لقد كانوا إلى يوم استخلافه ، يلاقون الكثير من العنت .. ويقعون
تحت وطأة صرائب ظالمة . فما كاد يتولى أمر الأمة حتى أصدر أوامره
الحازمة ألا يؤخذ منهم سوى الصريبة التي شرعها الإسلام لـ
حمايتهم وتوفير الأمن لهم .

وإن موقفه من قضية "كنيسة يوحنا" بدمشق لمثل رائع وباهر على عمسه
العظيم والنبل لدعم وحدة الأمة كأمة ، بصرف النظر عن اختلاف الدين

والجنس واللون فيها .. !!

كان "الوليد بن عبد الملك" قد هدم جزءاً كبيراً من كنيسة
"يوحنا" ، ليقيم عليه امتداد المسجد الأموي المشيد .

وحين وكى - عمر بن عبد العزيز - الخلافة ، شكاً إليه نصارى دمشق ما
حدث لكنيستهم ..

ثرى ، ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟

إن الجزء الذي تهدم من الكنيسة قد صار مسجداً
وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل في مثل هذا الموقف أن يعطى
تعويضاً سخياً ، أو أرضاً بديلة ..

لكن "ابن عبد العزيز" تتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن
أمالينا .. إنه أسلوب قديس جليل !!

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ،
وإعادة الأرض التي أقم عليها إلى الكسة .. !!
ودارت الأرض بعلماء دمشق وفهائها ، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير
المؤمنين بالعدول عن قراره .

لكن أمير المؤمنين ، أصدر أمراً جديداً حدد فيه اليوم ، بل الساعة
التي يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسلم . !!

ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوى أن يفاوضوا زعماء
الكنيسة في دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقاً يرضونه . ويتلون بموجه
عن الجزء المأخوذ من كنستهم . ثم يذهب وفد من الفريقين لإبلاع
الخبيرة نأ الاتفاق . فيحمد الله عليه ، ثم يمرّه ويرضاه . !!

ثم . دن نفسُ ذلك الموقف الذي انحده من بعض أهل لكتاب من
لنصارى ، حين أمر أن يعاملوا معاملته خاصة فيها بنسوق عنهم ،
وإخراج لهم .. ؟؟

إننا في ضوء موقفه العام الذي رأيناه ، لا نرى لموقفه الطارئ هذا
نفسراً إلا أن يكون قد دعاه إليه سلوك بعض أولئك الذين عمسوا
كطبور حامس للإمبراطورية الرومانية التي كانت تشن باسم الصليب -
حروباً عدوانية على دولة الإسلام ..

بُزِئَ ذلك - في رأسا - تلك الرسالة التي حملت أوامره بشأن أولئك
النصارى ، فقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوحد في دورهم من
سلاح .. مما يرمي إلى وجود مؤامرة كانوا يهيمون بها على أنه في موقفه
من هؤلاء ، لم يأمر باتخاذ أي إجراء عنيف .

كل الذي أمر به أن يُمَيَّرُوا بلباسهم الخاص .. وحتى هذا الإجراء
بشر إلى الربيه التي داخلت نفسه بجاههم ، فإراد أن يميزهم حتى
يكون هذا التمييز سبيلاً لكشفهم ..

فردا جاوربا هذه الفئه التي فقدت ولاءها لدولة وللمجتمع ،
وجدن موقفه من المسيحيين عامة موقف الحارس الأمين لحقوقهم
ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد أثار موقفه من الأديان ومن حقوق الأقليات في دولته الراشدة
انبهار و إعجاب العالم الخارجي من حوله ؛ حتى إن إمبراطور الروم "لئو
الثالث" - وقد كان حصصاً عبداً لدولة الإسلام - لا يكاد يبلعه فيف بعد
بها وفاة أمير المؤمنين حتى يبكي بكاء مُرّاً ، أدهل حشبه وأساقفته ،
فسألوه في ذلك ، فأجابهم بكلمات نعت من أصدو وأجمع ما قرئ في ناس

أمير المؤمنين :

"مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثل .. !!

"وليس ينبغي أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله

في صومعته .

"إنما العجب لهذا الذي صار الدنيا تحت قدميه فزهد

فيها .. !

"ولقد كان حرياً أن يعجل به ؛ فأهل الحير لا يلبثون مع أهل

الشر إلا قليلاً" .. !!

أفكان هذا الإمبراطور ليشهد فيه هذه الشهادة لو عرف عنه أدنى

اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب في عهده .. ؟؟

بل هل كان كبير أمارة الرومان متعجباً مسرعاً حين عزم بمرض

الحليقة، ليقم إلى جواره ببطسه ويعالجه .. ؟؟

* * *

ويعود لعمل الذي عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمة ؛ لنرى

كيف كان في الوقت نفسه عملاً في سبيل سلامها الداخلي :

والسلام الداخلي ، إنما يتوفر بالقدر الذي يجمع فيه شمل الأمة

وتتأخي أرواح بنيتها ..

ولقد أنعم الله عليه وعلى أمته بما تمتنى من وحدة الإسلام

فماذا عن السلام الخارجي ووضع أوزار الحروب التي كانت مشبوبة الأوار

خارج الحدود .. ؟

لقد رأيناها يبدأ في الساعات الأولى من خلافته بإصدار أمره

لجيش الذي أبهكه حصار القسطنطينية بالعودة .
ثم رأته يفندى جميع الأسرى على كثرتهم ويردهم إلى ديارهم
ووطنهم .

ثم براه يضع حداً لكل الأعمال العسكرية التي كانت تقوم بها
الدولة . ويعين أن الإسلام قد صار عزيزاً مبعأ بما تم له من فتوح ،
وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال إلا دفاعاً عن حدود
الدولة إذا هوجمت ، وعن سلامة الأمة إذا تعرضت للأخطار ..

واستعاض عن رحف الحنوش ، بكية التي أرسلها إلى ملوك الهند
وحكم مقاطعها ، يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم أكثرهم متأثرين بما
كان قد ترامي إليهم من أنباء ورعه ورهده ، وعظمته ونفاه ..
كذلك كتب إلى البربر ، في إفرقيه .. يدعوهم إلى الإسلام ، فدحموا
فيه أفواجاً ..

وكتب إلى ملوك ما وراء النهر ، فأسلم أكثرهم ورفعوا راية
الإسلام ..

أليس رجلاً مباركاً ذلك القديس . ؟؟

* * *

وخامساً، أسلوبه في التنفيذ ..

ماذا كنت الأمة سعيدة من ورعه وزهده وتقاه وعدله، لو لم تكن
كفاءته في التنفيذ موازية لكفاءته في حمل المسئولية والإخلاص لها . ؟؟
ها ننفي بحاسب من أبهى وأغنى وأقوى حواسب شخصية ذلك
القديس العطين الحازم الأرب . نلتقي به صاحباً بقطان . !

إن كن ساعات اليوم الأربع والعشرين مبدوره لمستول به .
ليس منها سوى الوق الذي يسعفه صلافة وعادته ، والب عس
أو الثلاث التي يمنحها لنومه وراحته .

أما بعد ذلك ، فلا وق لديه إلا لمستولبه المقدسة
وله أسلوب فريد في إنجاز هذه المستولة وتفيد مهجها .
فالتيس ، والحرم .. والأنفة ، والحسم .. والإشراف العميم ،
واللامركزية . والمطاولة ، والبقطة .. كل هذه تعمل "محتمة لا
"محتطة" - في انساق فذة وتكامل عجيب .. !!

يبلغ به التعب يوماً أشده ، فيأله بعض حاصبه أن يريح نفسه ، فيقول
"ومن يحزى على عمل اليوم" .. ؟

فيقولون له : سحزه في العد ..
فيجيب : "لقد قدحى عمل يوم واحد حتى سألنموي أن أريح
نفسى ، فكيف إذا اجمع على عمل يومين" .. ؟؟
به لا يحري حسابه الحامى كل شهر ولا كن 'سوع' بل لكل يوم
مستولبه وحسابه الحامى ، ولا يحيل يوم على آخر ، لأن لكل يوم
مزدحمه وأحماله .. !!

وهو بالسبة لعشرات الملايس التي تنظمها دولته الواسعة ، نداء
التحدة .. لا تهتف به حاجه فرد ولا مظلمة مظلوم في أدنى الأرض
وأقصها إلا ألفته وكأنه في انتظارها وحدها !!

وصغار الأمور عنده مثل كبارها . لها الاهتمام بنفسه والمسارة
بفسها . حمل إليه بريده يوماً رسالة من الحيرة بمصر .
أما صاحبة الرسالة فاسمها "فربوه السوداء" ، شكوا لأمير المؤمنين أن

لها حائطاً منهدماً لدارها يَنْسُوْرَةُ النصوص وسرفون دَجَاجِها ، وليس معها مال تنفقه في هذا السيل .

ولا يكاد الخليفة يلو الرسالة وهو في عاصمه حلافه بالشام حتى يكتب ، لى واليه على مصر "أيوب بن شرحبيل" هذا الخطاب :
 "من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى أيوب بن شرحبيل .
 سلام الله عليكم ..

"أما بعد ، فإن فرتونه السوداء كتبت إلى بشكو قصر حائطها ، وأن دجاجها يُسرق منها ، ونسأل تحصيته لها وبمه البريد الذي حمل هذا الكتاب لوالي مصر . حمل كتاباً آخر من الخليفة لفرتونة السوداء :
 "من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء .
 سلام الله عليك .

"أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يفتح عليك وتسرق دجاجك .
 "وقد كتبت إلى "أيوب بن شرحبيل" أمره أن يبني لك الحائط حتى تحصنه مما تحاين إن شاء الله" .. !!

يقول ابن عبد الحكم الذي روى لنا هذه الواقعة الباهرة :
 "فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الحيزة ، وظل يسأل عن "فرتونة" حتى وجدها ، فإذا هي سوداء مسكنة ؛ فأعلى لها حائطها" .. !!

هذا خليفة قديس لن نُقلت من رحمته وحسناته وعدله وأبونه شاردة
ولا واردة.. !!

ولسوف يشع قلبه الكسر وعمره القدير لكل شيء ..
انظروا .. !

إنه يكتب لوالديه على مصر أيضًا :
"أما بعد ..

فقد بلعي أن الحمائل في مصر يحملون عني ظهور الإبر
فوق ما تُطيق ..

فإذا جاءك كتابي هذا ، فامع أن يحمل على العبر أكثر من
ستمائة رطل .. !! "

بل إنه لسر في بعض حولاته أدماً يحملون مزارع ، في أسلحهم
حديدة مدسة يحسون بها دوابهم ، فلا يكاد يسفر في محله حتى يوقع
قراراً يحرم استخدام هذه المقارع .. ؟!
وبأنه يوماً سَلَّان كبيران مملوءان من رطب الأردن ، فيسأل . م
هذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلامَ جيء به .. ؟

فيقال له : على دواب البريد ..

فيهز رأسه ، ويقول :

"لقد حملموها فوق طاه بها .. بعوا الرطب ، واشتروا ثمنه عبثاً

لدواب البريد التي حملته .. !!

وبهزنا لبه ، وأبانه ، ومنعة صدره التي لم تعرف حدوداً
وفي تسعاً لهذه القصيدة لديه ، بجدها تتبع من رحمته العميقة
الأصيلة - هذه الرحمة الذكية التي لم يكن نعى محرّد الشفقة بالأساس ،
بن نعى العيام بحفّهم في بذل العون لهم حتى يعلنوا على سوازع اشر
فيهم ، وعلى هواجس النفس ، وثقاط الضعف .
وإنّ لتسمّع هذا النبض الحنون السيل من حلال دعائه الذي كان
يضرع به إلى الله كثيراً :

" اللهم زد مُحسِنَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ إِحْسَانًا ، وَأَرْجِعْ مُسِيئَهُمْ إِلَى
النُّبُوَّةِ .. اللهم وْحُطِّ مِنْ أَوْرَارِهِمْ بِرَحْمَتِكَ " ١١
إنه لا يتحسّر الأخطاء ، ليعافب عليها ، بل ليعالجها في رحمة
وحنان .

وإن أخطأ الناس لشغله إلى المدى الذي رأساه حيث لا يطر
إليها كحاكم ؛ بل كعابد ، يصلي من أجل معرفتها وإبهاس دويها .. ١٢
وهو لا يستبقى أناته وحلمه وسعة صدره ونسامحه ، داخل إطار دانه
كحلو شخصي له فحسب ، بل يحولها إلى فلسفه للحكم ومهاج .
ولطالما كن بوصى كل والٍ من ولاته بهذه الوصية .
" إذا قدرب على دواء شفى به صاحبك دون الكى فلا
تكوينه أبداً .. " ١٣ .

ولقد كان من حق حكام الأقاليم قبل عهده أن يُفقدوا حكم الفتر
فبمن يشاءون عدلاً ، أو ظلماً ..
فلما ولى ، حرّمهم هذا الحق ، وأصدر أمره ألا يفقد حكم القتل
في أحد ، حتى يطّبع نفسه على قصيته ، ويرى فيها رأيه .

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلاً :
 "والله لا أصلح الناس بهلاك ديني" !!

* * *

على أن رفقته وأمانته اللذين وسعا أمته جمعاً ، لم يكونا مطمئناً
 يُعري باسنصعده أو محادعته ، فقد كان هناك الحزم البقظ لكل من
 تُسول له نفسه عبثاً ، أو فتنة .. !!
 ولقد كانت فضائله كلها مهياة على الدوام لحماية مواقعها ، وأداء
 دورها ..

فلا يجيء موقف ينطلب الرحمة ؛ فيجدها غافية .. ولا موقف
 ينطلب الحزم ؛ فيجدها كليلاً .. !!
 ولقد نراه مع عامة الناس ينقض كالصفرور تواضعاً وحناناً
 ورحمة ..

ثم نراه مع الجبارين أسداً يزأر .. وجلالاً يُهاب .. !!
 بعد أن يشس الأمراء الأمويون من اسنرداد إعطاعاتهم وثوراتهم
 بالصراعة والحيلة ، أغروا واحداً منهم وهو - عمر بن الوليد بن عبد
 الملك - بالكتابة إليه مهدداً متوعداً . فكتب يقول :
 "أما بعد ، لقد أُرِيتَ بمن كان قبلك من الحف ، وسرر
 بعير سيرنهم ، فمطعت ما أمر الله به أن توصل ، وعمدت بعير
 الحق في قرابنك ، وعمدت إلى أموال قريش وموارشهم
 وحقوقهم فأدخلها بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً ."
 "فأثو الله يا بن عبد العزيز ، فإنك تُوشيت ألا تطمئن على

مِسْرَك .. !!

وفي نفس المحظة التي يفرع الحلقة فيها من فراءة هذا الخطاب المنسم بالسفه والطيش ، يتقدم خلق الحرم الصارم ليؤدي دوره تجاه الباطل الذي يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبهائه .. !!
ويكتب أمير المؤمنين رَدَّة :

"من عمر أمر المؤمنين ، إلى ابن الوليد .."
سلام على من اتبع الهدى ..

"أما بعد ، فعهدى بك أمك كتب جدراً شفاءً ، والآن نكتب إليّ نهمة بالظلم ، لأسى حرمك وأهل بيتك من مال المسلمين ما هو حق للضعيف والمساكين وابن السبيل .. !! ألا إن شئت أحرنتك بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله ..!!"

إنه أبوك الوليد ، الذي حين كان حلقة للمسلمين استعملك عليهم صباً سفيهاً تحكم في دمائهم وأموالهم ..!! "قويل لك ، وقويل لأبيك - ما أكثر طلابكما وحصماء كما يوم ، لقبمة ..!"
"وأظلم مني وأترك لعهد الله ، من استعمل الحجاج بن يوسف ، يسفك الدم الحرام ."

"وأظلم مني وأترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن أبي مسلم على جميع العرب يحضي المال الحرام ويسفك الدم الحرام .."

"ألا رؤيتك يا ابن الوليد - فلو طالب بي حبة لا نهرغى لك ولاهل بيتك حتى أفسدكم على المحجّة السضاء ..!!"

لنضع خطابه السابق إلى "فرتوة السوداء" تحاه خطابه هذا ، إلى ذلك
الأمير الأموي المسجبر ؛ نرى في غير تعليق كيف كانت تعمل فضائل هذا
الإنسان الباهر الحليل .. ١١

إن الرجل الذي يجلس للناس على الأرض وهو خليفة .
الإنسان ، الوديع ، العذب ، يحول إلى إعصار مُدمدم أمام جيروت لباطل
أنى يكون .. ١٢

ومش هذا الموقف من الأمراء المتمردين ، موقعه من إمبراطور الروم ..
لقد أخبر أن أحد جنود الحشيش الذي كان يحاصر القسطنطينية ،
وكان مقاتلاً شديداً للباس ، قد وقع أسيراً في أيدي الرومان ، وحُمل إلى
الإمبراطور الذي حاول إكراهه على الحروح من دينه الإسلام ورفض
الأسير .. فأمر الإمبراطور أن تُسَمَّل عيناه ..

بلغ السأ - أمير المؤمنين - ههنا حزمه الشديد لمعالج الموقف
وحمل قلمه وكتب إلى ملك الروم :
"أما بعد ..

"فقد بلغني ما صنعت بأسيرك فلان ..

"وإني أقسم بالله ، لنن لم تُرسله إليّ من فورك لأبعث إليك
من الحند ما يكون أولهم عندك وأحرهم عندي" .. ١٣
ويعود الأسير إلى وطنه وأهله .. ١٤

* * *

وهو ذو يقظه شاملة ، لا تتحلى في الإنحاز وحده - بل في رؤية
الفضايا ، وإدراك الكليات والتفاصيل .
ولو تنعما كتبه إلى ولاته لوجدنا من آيات يعظته وشمول نظره ووطنه ما

يبهر الألباب .

فلنقنع ببعض فقرات من تلك الكتب .

* اتَّبِعُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَحَرِّمُوا مَا حَرَّمَ ، واعترفوا بحقه تعالى ،
واحكموا بما أنزل .

* افتحوا للمسلمين باب الهجرة ..

* دعوا الناس يتحروا بأموالهم في البر والبحر ، لا يحولوا ييس عباد
الله ومعاشهم .

* أبيعوا أرض الحمى للمسلمين عامة ، وليكن حق الأمر فيها كحق
واحد منهم ..

* الخمر باب الخطايا ، فحرِّموا كل مسكر .

* كافحوا التطعيف في المكيال والبخس في الميزان ..

* لا تتحروا وأنتم ولأه ، فإن الأمير إذا اشغل بالتحارة استأثر ،
وأصاب ظلمًا ، وإن حرص ألا يفعل ..

* لا تأخذوا من أموال الناس إلا الحق الذي شرعه الله ، وما عدا
ذلك فصعوه كله - لا فرق بين مسلم وأهل كتاب .

* ضعوا السُّحرة عن الناس ، وليكن لكل عمل أجره .

* رُدُّوا ، لمزارع لما خلقت له ، فإنما جعل لأرزاق المسلمين
كفاً ..

* لا تتخذوا على أبوابكم حجاباً يمنعون ذوي الحاجات
والمظنومين ..

* اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدعوا الناس يقول أحدهم ،

أنا مُضَرِّي ، ويقول الآخر أنا مُصِي ؛ فالمؤمنون إخوانه .

* المحل عدة الجهاد ، فلا ندعوها بركض في غير حق .

* اسمعوا الساء أن بشرن شعورهن وبخرجن ذلحاح وراء المومى ..

* قاتلوا هواكم كما تقاتلون أعداءكم .

* سدّدوا المحالين ، وبصّروهم ، وارفقوا بهم ، وعلموهم ، فرب

اهتدوا كاب نعمة من الله وفصلاً .. وإن أبوا فحسروا الحق فيهم

تزلون بهم من عقاب ..

* أكثروا من دعاء الله ، لعافه لأنفسكم ولن ولاكم الله أمره ، فرب

لكم في إصلاحهم أكثر مما لهم ، عليكم من فسادهم أكثر مم
عليهم ..

* تعاهدوا حُجَّابكم ورؤساء حرسكم وشرطكم والعاملين معكم ،

وأكثروا المسألة عنهم حتى يسيئوا أنفسهم لا يرتكبون غشماً ولا
ظلماً ..

* لا بأخذتكم الزهو بنظر الناس إليكم ؛ ولا بحديثهم عنكم .

وضعوا أعينكم على الدي هو أبر وأتقى ، وأحصوا الله رب

العالمين ..

* اتركوا أعمالكم عند حضور الصلاة ؛ فإن من أضاع الصلاة كان لهما

سواها أضيع ..

* تحسروا الحق ؛ ثم اعملوا به نالاً ما يبلغ بى وبكم .. حتى وإن

ذهب بحياتنا وبمهج أنفسنا ..!!

هذا نموذج من أوامره وبوجهاته يكشف عن يفظه ش منه لتفكره

ومشعره وإرادته . يفظه تعطى الحزنيات الالهنام باسمه الذي يعطيه

لكليات II

وبهذا المنهج الذي يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه ، قطع ابن عبد العزيز طريقه وثباتاً متحذاً من الإنحاز وسرعه الحركة طابعاً لمسيرة المباركة ..

لقد كانت مسؤوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ، ومشكلات الدولة والأمة لا تنتظر من يكشف عنها أو يفلسفها ، بل تنتظر من يواجهها بذمة وصدق وحسم ، فبم إذن يكون تلقّت أو انتظار .. ؟

ومن هنا انطلق يحجز ، وسجز ، وينجز ، مُعطياً كل مسئولٍ مسؤوليته، أمراً إياه إن بمضى بها في شجاعة وحكمة وأمانة .
أجل ، لقد كان ينهى ولاته عن أن يكونوا إمعات ، أو متواكليس هيايين ..

وإنه ليرضى أعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مقبلين على مسئولياتهم في شجاعة، فحزيس إناها في حرم ، مُتممى وحوهم وأفئدتهم صوب الحق وحده ؛ لا يعدلون به أحداً ، حتى الخيفة نفسه:
"إذا أرسلت إليكم أمراً يخالف الحق .
"فاضربوا به الأرض ..

"واستمسكوا بالحق وحده" !!!

وكان يعينهم على فهر النخوف من المسؤولية بمنحهم قدراً كبيراً من اللامركزية ، والاستقلال ..

أرسل يوماً إلى أحد ولاته أمراً ، فأرسل الوالى يسوضحه ببعض التفصيلات ، فتجهّم الحليفة وكب إليه من فوره :
"أما بعد ..

فأراك لو أرسلت إليك : أن أذبح شاة ووزع لحمها على
الفقراء ، لأرسلت تسألني . ضائاً أم ماعزاً ؟
فإن أجبتك .. أرسلت إليّ تسألني :
كبيرة ، أم صغيرة ؟

فإن أجبتك ، أرسلت تسأل : بضاء أم سوداء ؟ !!
"إذا أرسلت إليك بأمر ، فتبين وجهه ، لحق فيه ، ثم
امضيه" .. !!

إنه لا يريد أن تملكاً حقوق الناس وتعتثر في شكليات عقيمة
إنه يجد نفسه مسئولاً عن كل خطأ ، أو مظلمة تبقى دقيقة من الزمان ..
ومن ثم فهو يقطع الأيام وثباً وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حق
حتى يؤديه لصاحبه. !!

ويمش هذا الحسم والإنحاز ، كان يغير كل والٍ ، أو قاضي ، أو أمين ،
أو رئيس شرطة ، أو مسئول ، لا تثبت التجربة السريعة الصادقة أنه في مكانه ..
وإذا خُدع في أحد فظه للمنصب أهلاً .. ثم نبش له أنه غير أهل ، لم يُظَره
لحظة تحت تأثير حرج أو مجاملة .

ولقد ملأت يفظنه وإسجاره بلاد الدولة إعماراً وحياة ، وفحرت صدقات
الناس تفجيراً .

وعلى الرغم من أنه كان يرى القدوة التي يقدمها للناس جميعاً تفعل
فيهم فعل السحر ، وتجري من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم في العروق ،
فإنه مع ذلك لم يعقل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه .. فنراه يتنقل في مواطن
كثيرة متخفياً ومتنكراً يسأل ، ويفحص .

ولم تكن في الحياة بأسرها متعة تشيع في روحه البهجة والعبطة

مثلما يرى أو يسمع أن ظلماً قد دُحِضَ .. وأن عدلاً قد نهض .. وأن حق
قد رُدَّ لصاحبه في غير جهد منه ، أو إلحاف !!

ركب يوماً في إحدى جولانه هذه ، مصطحباً معه مولاه "مُزاحِم" ،
حيث خرجا إلى معارق طرق بعيدة بغيرها فواقِل المسافِرين .

وهناك راح - وهو منتكر في ثيابه - يسأل الغادين منهم والرائحين ،
ومن بين هؤلاء رجل في إحدى القوافل ، اقرب منه - عمر - وسأله:
كيف تركت الناس في بلدك .. ؟

فقال الرجل : إن شئت جمعت لك حبري ، وإن شئت بعصته
تمصصاً !!

فابسم الحليفه ، وقال : بل اجمعه - أي - أوْجره
قال الرجل :

تركت البلاد، الظالم بها مقهور .. والمظلوم مصور ..
والغني موفور .. والفقير مجبور ..
وسارع - عمر - بالانصراف بعداً عن مُحَدِّثه قبل أن تشي به انفعالاته
ودموع الشكر التي راحت تحذر من مآقه

وولى مسرعاً، مسرعاً، وقلبه الشكور ولسانه الذكور بضرعان إلى
الله بآيات الحمد والثناء والتف إلى "مُزاحِم" وقال له :

"والله، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل،
لأحب إلي مما طلعت عليه الشمس" . !!



+

تعريف بالكاتب

خالد محمد خالد

(المتوفى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)

كان مولده يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٩ من محرمه السلي صلي الله عليه وسلم الموافق ١٥ يوتنة سنة ١٩٢٠ ميلادية، في "العدوه" إحدى قرى محافظة الشرفة بمصر، والتحق في طفولته بكتاب القرية، فأمضى به بصع سنوات، حفظ في أثناءها قدرًا من القرآن، وتعلم الفراءة والكتابة.. ولم يفد والده - الشيخ محمد خالد - عزمه على أن يلحقه بالأزهر الشريف، حملة إلى القاهرة، وعهد به إلى ابنه الأكبر "الشيخ حسين" ليتولى تحفيظه القرآن كاملاً، وكان ذلك هو شرط الالتحاق بالأزهر في ذلك الوقت.

أتم حفظ القرآن كله في وقت قياسي وهو خمسة أشهر كما بين ذلك مفصلاً في مذكراته "قصي مع الحياة" - ثم التحق بالأزهر في سن مبكرة، وظل يدرس فيه على مشايحه الأعلام طيلة ستة عشر عامًا حتى تخرج منه، وذلك، لشهادة العالمة من كلية الشريعة سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، وكان آنذاك زوجًا وأبًا لاثنين من أبنائه.

عمل بالتدريس بعد التخرج من الأزهر عدة سنوات حتى بركه نهائيًا سنة ١٩٥٤، حيث عيّن في وزارة الثقافة كمستشار لبشر، ثم ترك الوظيفة نهائيًا بالخروج الاختياري على المعاش عام ١٩٧٦.

ويُذلت له عروض مغرية كثيرة لنيل وظائف قيادية في الدولة، سواء في رئاسة جمال عبد الناصر أو أنور السادات، فكان يعتذر عنها، ورفض عروضاً أخرى كثيرة لأسفار يسيل لها اللعاب، وآثر أن يبقى في حياته البسيطة المتواضعة التي يغلب عليها الزهد والقتوع^(*).

وقد تقلبت حياته في أطوار متعددة، من حفظ مكسر وسريع للقرآن الكريم، إلى طالب نابه بالأزهر الشريف، إلى شاب متعطش للمعرفة، تواق إلى أنواع الفنون والآداب والثقافات، إلى منغمس في السياسة مشغول بها، إلى خطيب بارع تهز خطبه السياسية أعواد المدير، ثم إلى واعظ تعمر دروسه وخطبه القلوب بشوة الإيمان، إلى عبد مشغول بالآخرة، وصوفي مشغول بربه، وهكذا.. وقد شرح ذلك بالتفصيل في مذكراته التي كتبها وجعل عنوانها "قصتي مع الحياة".

وفي منكرة التقى بشيخه المربي الكامل الشيخ محمود خطيب السكي إمام أهل السنة ومحدد رواف الإسلام - كما وصفه هو - وكان أعجوبة من أعاجيب الزمان، وشاهدأ على ما يفيض الله على أوليائه وأحبابه من واسع فضله وعطائه^(**).

وصفه بقوله: "إن وصفه لمن الأمور الصعبة، والحديث عنه بقدر ما هو شهي وندي.. بوقع الكاتب في حيرة.. وهكذا يكون شأنه مع أنبياء الله والمرسلين.. ومع أوليائه المفربين.. فمحنت نشق عبيرهم الذي يتضوع بهاء وعطراً.. وتقلب في نعاء ما آتاهم الله من نور وهدى وحكمة.. بعد

(*) انظر "قصتي مع التصوف" لخليل محمد محمد بشر دار نهضة والبورج بالعاصمة

(**) انظر قصتي مع التصوف

أن الاقتراب منهم يفرض علينا من البيعات ما لا نطبق.. والحديث عنهم، وتفسير موافقهم، أمر يعسر تناوله إلا على من يجعل الله عسره يسراً" (*).

وكم كانت حياته في بواكيرها كالنهر الذي تجش مياهه بالقيصان، وتتقلب في بدفق وعموان، فإنه كلما اقترب من البحر هدأت أمواجه، واطمأنت مسيرته، حتى إذا امتزج بماء البحر صار له هدوؤه وشموله واتساعه..

وجاءت مؤلفاته الرائدة كذلك، بدأت ثائرة متدفقة.. وانتهت إلى الرسوح واليقين. وفي كنها كان مخلصاً، لا يتعنى بأى منها عرضاً من أعراض الدنيا. بل لقد حاءه الدنيا تعرض نفسها عليه من أوسع أبوابها، فأوصد دويها بابه...

ومثل على ذلك أن جمال عبد الناصر ورفاقه في مجلس قيادة الثورة كانوا قد قرأوا كتبه قبل الثورة، وتحمسوا لها لدرجة أن عبد الناصر كان يشتري مسدس - من جيبه الخاص - مئات السح ويورعها على زملائه الصباط (**)، ومع ذلك فإنه لم يفت الثورة لم يرد أن يستفيد منها، وكانت فرصته في ذلك عظيمة، ولكنه بدلاً من ذلك وقف باقداً للثورة موجهاً لها، مطالباً بحكومتها بتطبيق الديمقراطية، فكان صدور كتابه "الديمقراطية

(*) من مقدمة الكتاب "إن صحبة الشيخ محمود عطار إمام السنة ومط "الأقطاب" الأستاذ مرميق أحمد

حس، دار المقطم بالقاهرة

(**) انظر "قصي مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر

"بدأ" بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وظلت هذه موافقه من الثورة ورجالها حتى توجت بموقفه الفريد في "البحنة التحضيرية" سنة ١٩٦١، وفيها اتعد موافق الثورة من قضيب الحربة والديمقراطية، وعارض ما أراد عبد البصر لعدم به من إجراءات نعتبه صد من أسموهم - حسند - بفايا الإقطاع، وأعدء الشعب . بعد أن برعوا أموالهم عصت وظلمًا، واكلوا بهم بعير جريره ارتكبوها، فصاروا بعد عز في ذل، وبعد عى في فاقه وعور، وبعد أمن في خوف، ولا يحدون من بدافع عنهم، أو يتصر لهم.. فكان هو لصوب الوحيد الذى ارتفع في وجه الصمت والخوف، مدافعًا عن الحق، طالبا لهم - بدلاً من العزل السياسى - "العدل" السياسى، ولما أخذ للصوب فى المجلس على من يعرض على إجراءات العزل السياسى، كانت بده هى الوحيدة التى ارتفعت فى سماء الفاعة التى ضمت - يومئذ - ثلاثمائة وستين عضواً^(*).

* * *

مد كتبه الأول "من هنا تبدأ" حرج خالد محمد خالد على البس ككتاب فذ، وصاحب فكر، ومافح عن قصاي الأمم . ويزد نحدد موقعه كمصلح اجتماعى ورعيم فكرى نعلقت به جماهير عصره من الباس، وأعجبت بكتبه وأفكاره، ليس فى مصر وحدها، بل وخارجها أبصا.. وطبع "من هنا تبدأ" ست طبعات فى ستين اثنين، وترجم فى نفس السنة التى صدر فيها إلى الإنجليزية فى أمريكا، وكتب عنه عدة رسائل وبيحت جامعية ومقالات فى أنحاء متفرقة من أوربا وأمريكا..

(*) انظر "قصص مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر

ولكن فطرة لمؤلف البقية، وبسبب الصداقة جعلاه - فيما بعد - يقول إنه عندما رأى حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه. وهنا يسجلني و حد من مواقفه التي امتلأت بها حياته، إذ ظل يفكر فيما دعى إليه فيه من فصل الدين عن الدولة ويقلبه في ذهنه حتى أعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأي، فلم يحجل - وهو الكاتب الكبير - من أن يعرّض أنه أخطأ.. وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته. فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعه هذا النصحيح إلا أنها من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعه أو تلفزيونية. ثم لم يكتب بهذا كله، فكتب كتاباً كاملاً أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، بل إنه جعل شعار الكتاب هو: "الإسلام دين ودولة..

حق وقوة..

ثقافة وحضارة..

عبادة ومياسة.."

* * *

وقد حلف - رحمه الله - ثروة علمية كبيرة تربو على ثلاثين كتاباً، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التي لم تجمع بعد.. وقد نفع الله بأعماله نيك نفعاً كبيراً، ونلقفها القراء في شوق، لأنها - ككل أعماله - اتسمت بالإخلاص، وتدفت بالعاطفة الصادقة الحياشة.. وأشهر مؤلفاته، وأكثرها انتشاراً هي الإسلاميات التي جاءت فريدة في بابها من حيث الأسلوب، وطريقة التساؤل، وأشهرها عنى الإطلاق "رجال حول الرسول ﷺ" الذي تحدث فيه باقتدار عن سيرة سبي من

أصحاب رسول الله ﷺ، و"خلفاء الرسول ﷺ" الذي ضم بين دفتيه خمسة كتب عن الحلفاء الراشدين:

١- "وجاء أبو بكر"

٢- "بين يدي عمر"

٣- "وداعاً عثمان"

٤- "في رحاب علي"

٥- "معركة الإسلام عمر بن عبد العزيز"

وقد ترجمت هذه الكتب إلى لغات كثيرة في أنحاء عديدة من العالم..

ومن كتبه أيضاً: "أبناء الرسول في كربلاء" و"والموعد الله" و"لقاء مع الرسول ﷺ" و"كما تحدث الرسول ﷺ" و"كما تحدث القرآن" و"إنسابات محمد ﷺ" و"عشره أيام في حبة الرسول ﷺ" وغيرها..

أما كتبه السياسية والإسبابة والاجتماعية والفلسفية فهي عديدة كتب منها ثلاثة كتب في موضوع الديمقراطية وحدها، وهي: "الديمقراطية أبداً" و"دفاع عن الديمقراطية" و"لو شهدت حوارهم لقلت" .. راجع قائمه المؤلفات في آخر الكتاب..

وكتب - أيضاً - مذكراته في كتاب "قصي مع الحياة"، وقد نشرت لأول مرة في جريدة "المسلمون" السعودية و"المصور" المصرية في آن واحد، وبعد أن تمت طبعت في جزء واحد في مؤسسة أخبار اليوم، ثم طبعت طبعة جديدة بدار المقطم بالقاهرة.

وكان آخر كتبه "الإسلام بتنادي البشر"، وقد أراد له أن يخرج في

ثلاثة أجزاء:

الأول: إلى هذا الرسول ﷺ

الثاني: "إلى هذا الكتاب" (القرآن)

والثالث: "إلى هذا الدين"

ولكنه لم يتمكن إلا من كتابة الجزء الأول، ثم وافته المنية.

* * *

أما عن عاداته في الكتابة، فإنه لم يكن يحلّس للكتابة - قط - إلا إذا استشعر الحاجة الملحة لذلك، ويكون المكرة التي يريد الكتابة عنها قد مضت، وطلبت الظهور، حينئذ يحلّس في أي مكان، وفي أي ظروف وسداً في الكتابة دون أن يسفت لما حوله أو يشعل به. وقد سمعي - أحياناً - من حينه سنوات دون أن يكتب فيها شيئاً لأنه لم يجد ما يهيج في نفسه الدافع للكتابة..

وقد اتسمت كتاباته بأسلوب رشيق بديع، وقدرة فائقة على التعبير والغوص إلى جوهر الأشياء، ووصفها بسرور وروعة، واقتدار وكن كثيرًا ما يُسأل عن السر في جمال أسلوبه فكان يقول:

"إن الأسلوب في الكتابة لا يصنعه شيء إلا رب العالمين"

وقد أورد الدكتور شاكِر النَّابِلِي في كتابه الذي كتبه عنه نموذجٌ من كتابته، وجعله تحت عنوان "عرف لغوي" (*)، وهو العنوان الذي يصف رشاقته أسلوبه وجماله، ونقوده إلى القلوب..

* * *

وكن - رحمه الله - طيب النفس، مسبشراً في عامة أوفائه، تملأ

(*) ثورة التراث، دراسة في فكر محمد عبد الحليم شاكِر النَّابِلِي

عنه السكينة والتأمل..

وكان عية في الكرم، عابة في التواضع وبيل الأخلاق، باراً بوالديه وصولاً للأرحام مراعيًا لحقوق الزمالة والجران، ساعب - إلى آخر أيامه - في قضاء حوائج الناس، لا يعمل من كثرة فاصديه، ولا يصجر من الحاح بعضهم عنه حتى في أوقات مرضه، وكان يقول: "لك زكاة الجاه"

واتسمت حياته كلها بالزهد في المال والمب صب ومظاهر الحاء، وقد استفاض في وصف ذلك من عرفوه وكتبوا عنه (*) ومن ذلك أيضا موقفه التي أظهرت ما كان عليه من شجاعة ومن مكارم الأخلاق منها موقفه من الإخوان المسلمين الذين كان قد عرضهم قبل الثورة، ولكنه بعدها، وبعد أن تكلفت الثورة بهم ومرفقهم كل ممزق، طلب منه مهاجمهم وتقديم فأبى ولم يحضغ لإغراء ولا تهديد قائلاً: "لقد نافشت الإخوان وتقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من محاديينهم!! ويوم كنوا من القوه بمكان.. أما اليوم وهم في المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدي الرسول ﷺ ألا نجهر على جريح".

وقد نقل الشيخ يوسف العرضاوي تفاصيل هذا الموقف في مذكراته التي نشرها في جريدة "أدق عربية" (العدد رقم ٥٧٣). (**)

* * *

كان - رحمه الله - محباً للخير، مسارعاً إليه، كأنه كان يصف كوامن الحير في نفسه عندما كتب هذه السطور من كتابه "لقاء مع الرسول ﷺ":

(*) راجع "معي مع التصوف" ص ٣٧ وما بعدها طبعه دار المقطم بالقاهرة

(**) راجع "معي مع التصوف" ص ٤٤ وما بعدها . ط القطم.

"فإذا سألتني - أيها القارئ - ما الخير؟ أجيبك من قوري: إنه الخير.. إنه ذلك الذي يجعل الإنسان إنساناً حى القلب، ريان الضمير.. وذلك الذي يجعل منك ملاذاً للآخرين، ياوون إليك كما ياوى المحرور إلى ظل شجرة، أو كما ياوى الظمان إلى عين ثرة تفيض بالماء البارد النعير. هو انعكاس إنسانيتك على الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك البارة الكريمة على الحياة وعلى الأحياء.

وإن خير ما يصنعه المرء في حياته هو أن تسع حياته الناس رحمة وبراً، ومحبة ووداً".

فكان محباً للناس، لجميع الناس، مستأنساً بهم، متودداً إليهم، متغافلاً عن أخطائهم متسامحاً مع من يسيئون إليه..

كان.. باختصار - متخلقاً بأخلاق الإسلام، وإن لم يحرص على أن يكسو نفسه بمظهره.. بل كان له مظهر الرجل العادي - كسائر الناس. أما سلوكه وأخلاقه فكانا يدلان على عمق إيمان ورسوخ يقين..

وكان يعزو ذلك إلى التصوف فيقول في مذكراته:

"ومرة أخرى أنحنى إجلالاً للتصوف، فهو الذي سكب في روحي كل ما روى ظماها إلى الخير والسكينة والمرحمة والمعدلة، وكل ما بقى لى.. من قربات ومغانم ومناعم، ومن فضائل وقدرة وإصرار.. فإليه - أولاً - يرجع الفضل بين كل الأسباب، وقبل كل الأسباب"

لقد كان - رحمه الله - ممن تشرب روح التصوف منذ يفاعته، ولم يكن تصوفه إلا في قلبه، فلم ينتم إلى أى من طرقه، بل تلقاه مبكراً على

يد شيخه السبكي رضى الله عنه (*)

وكان محباً لأهله أينما وجدوا مداوماً على زيارة أضرحة أهل البيت، وأولياء الله الصالحين .

ومن أقواله الماثورة:

- "إنى لا أرفض إنساناً لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، وأرفض معه بقية فضائله، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد".
- "إن الحب هو جوهر الحياة.. إن الحب يولد فى النفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى فى الكون ولا تقابلها".
- "الله سبحانه لا يعيق المهاجرين إليه، والمسافرين إلى رضوانه، بل يجعل لهم الأرض مهداً، والسماء مَبْلاً".
- "على رأس فضائل الحياة وشعار الدين تقف فضيلة الحب".
- "لابد للحب كى يصفو ويدوم أن يكون خالصاً، صافياً، نقياً، وبكلمة واحدة: أن يكون لله رب العالمين".
- "كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نُبعث.. ومن كان فى شك من الموت والبعث، فليعش إن استطاع بلا نوم وبلا استيقاظ".
- "علاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التى تفرضها والسلوك الذى نحمل به هذه التبعات".
- "إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسر الباهر الذى تحمله، والحكمة الثاقبة التى تمنعها".

(*) راجع فصحى مع التصرف.

- "إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا ومالها من حظوظ الخير والفضيلة".
- "لا تجد مؤمناً إلا حياً، ولا منافقاً إلا عديم الحياء".
- "الإسلام لم يأت ليعلّمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلّمنا أخلاق المدينة".
- "الكذب مفسدة مطلقة، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار، وله ضراوة كضراوة الخمر أو أشد".
- "الرياء آفة تمحق الأعمال وتردّها تراباً في تراب".
- "التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس".
- "الإيمان بالقدر لا يقول لك: نم وانتظر قدرك.. بل يقول: قم واكشف قدرك".
- "وسئل عن القومية العربية فأجاب: إنى لا أعرف شيئاً عن القومية العربية، ولكنى أعرف أشياء عن الوحدة الإسلامية".
- وقال شعراً في عيد مولد النبي ﷺ:

يا عيد مولده كم ذا تواتينسا تشدو فتبهجنا، تشجو فتبكينا
قل للرسول إذا ما جئت روضته أدرك شعوبك قد حار المداوينا

* * *

وفاته

كان - رحمه الله - قد مرض مرضاً طويلاً، واشتد عليه في سنواته الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله" ولم تكن فكرة الموت تزعجه، بل كان كالمنتظر له على شوق، وقد استعد له، وأوصى بما يريد..

وكان من وصيته أن يُصلى عليه في الجامع الأزهر، مع هذه العلمى،
ومرتع صباه وشبابه، وأن يُدفن بقريته "العدوة" بجوار الآباء والأجداد
والإخوان والأهل..

وجاءته الوفاة وهو فى المستشفى يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩
شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٩٦م - عن عمر يناهز
الستة والسبعين عامًا.

* * *

اللهم إنى قد قلت فيه مبلغ علمى..
ولا يخلو كلامى من أثر حب الولد لوالده..
اللهم لا تكله إلى عمله..
واشمله برحمتك يا بر يا رحيم..
وصل اللهم على الحبيب الشفيع..
سيدنا محمد..
وسلام على المرسلين..
والحمد لله رب العالمين..

محمد خالد ثابت